

طه حسين

الحب الضائع



دار المعارف



Bibliotheca Alexandrina



0139881

الحبّ الضائع

طه حسين

الحب الضائع

الطبعة الخامسة عشرة



دار المعارف

الحب الضائع

١

ما أكثر ما أعجب من نفسي ، وما أسرع ما يستحيل هذا العجب إلى سخرية منها أول الأمر ، ثم إلى رثاء لها وعطف عليها . لا يعرض لي شيء غريب أو مألوف إلا حاولت أن أتبين أصله وأرده إلى علته . وقد أبلغ من ذلك ما أريد فأرضي ، وهذا نادر ، وقد أعجز عن التعليل والتأويل فأسخط ، وهذا كثير . وأنا على كل حال ساخرة من نفسي لهذا المرض الذي لا أجده منه برءاً ، مرض التماس العلة والانتهاء إلى المصادر والأسباب .

والناس يقولون ، إننا ، نحن الفرنسيين ، أمة مريضة بالتعليل والتحليل ، وإن فيلسوفنا ديكارت قد أفسد علينا عقولنا لكثرة ما ألح علينا في أن نحلل ونحلل ، ولشدة ما فتننا بتحليله وتعليله حتى أصبحنا جميعاً فلاسفة أو كالفلاسفة ، وحتى اتخذ العالم منا والجاهل ، والمثقف منا والساذج ، طور الفيلسوف الذي لا يرضى ولا يطمئن إلا إذا رد كل شيء إلى أصله ، ووجد له تفسيراً أو تأويلاً .

وأكبر الظن أن هذا حق ، فإننا نحن الفرنسيين حين تعرض لنا المشكلات أو تلم بنا الأحداث لا نغنى بحل المشكلات ولا بالتخلص من الأحداث ، وإنما نغنى قبل كل شيء بتفسيرها وتأويلها ، فإذا

وصلنا من ذلك إلى ما نريد رضينا واطمأنت قلوبنا وأذعنّا للقضاء ،
وقد يشغلنا هذا عن التماس المخرج مما يلم بنا من الخطوب أو يعرض
لنا من الأزمات .

أنا إذن فرنسية من هؤلاء الفرنسيين ، لم أبرأ من هذا المرض
الفرنسي العام ، مرض التأويل والتعليل ، وأنا بجادة الآن في البحث
عن أصل هذا الخاطر الغريب الذي أجلسني إلى هذه المائدة ومد
يدى إلى هذا القلم ، ثم أخذ يجريها على القرطاس بهذا الكلام الذي
أكتبه .

ذلك أني لم أكتب قط إلا ما تعود أمثالي أن يكتب من هذه
الكتب اليسيرة القصيرة ، التي تتصل بين الصديقات حين يفرقن
ويحرصن على أن تتصل بينهن المودة وتتصل بينهن المجاملة بنوع خاص ،
وتتصل بينهن بنوع أنخص هذه الثروة التي لا يستطعن أن يخلصن
منها أو يعرضن عنها .

لم أكتب قط إلا هذه الكتب القصار إلى الصديقات حيناً ،
وإلى أبوي وإخوتي حين كنت بعيدة عن الأسرة ، رهينة لذلك
السجن الذي اضطرت إليه ثمانية أعوام والذي نسميه المدرسة .
وأنا الآن جالسة إلى هذه المائدة ، مجرية قلمي على هذا القرطاس ،
لا لأكتب كتاباً إلى صديقة ، ولا لأكتب كتاباً إلى أحد من
أسرتي ، فإني لا أفكر في أحد غير نفسي ولا أحب أن يقرأ أحد

شيئاً مما أكتبه الآن وما سأكتبه فيما سيتصل من أيام . فإنى لم أجلس للكتابة إلا وأنا مقدره أنها ستتصل . وأنا أبحث عن هذا الخاطر الغريب الذى دفعنى إلى هذا النحو من التفكير والكتابة فلا أكاد أهتدى إليه .

أنا أذكر أن ثلاثاً من أترابى قد أزرنى منذ أيام فخصنا فى أحاديث مختلفة ، وذكرت كل واحدة منهن كثيراً من شؤونها الظاهرة والمستورة ، وتحدثت كل واحدة منهن بما تُسر بين حين وحين إلى دفترها حين تخلو إلى نفسها وتأوى إلى غرفتها بعد أن يتقدم الليل . وأذكر أنى سمعت أحاديثهن فعجبت لها وأعجبت بها . ولم أستطع أن أشارك فيها لأنى لا أسرّ إلى دفتري شيئاً إذا أويت إلى غرفتى بعد أن يتقدم الليل ، بل لأنى لم أتخذ قط لنفسى دفترًا أسرّ إليه أحاديث نفسى ، وآمنه عليها ، وأستعين به على ما قد يضيق به صدرى من الخواطر والهموم ، أو على ما تفيض به نفسى أحياناً من ألوان الغبطة والابتهاج . بل لم أفكر قط فى شيء كهذا ، وإنما آمنت دائماً بأن سر النفس يفقد حرمة وطبيعته إذا تجاوز التفكير إلى طرف اللسان أو إلى طرف القلم . وأبيت دائماً أن أشرك فى أحاديث نفسى أحداً غيرى ، ويجب أن أعترف بأن أحاديث نفسى لم تكن ذات خطر ، وبأنها لم تبلغ قط من القوة أن تشعرنى بالحاجة إلى من يشاركنى فيها أو يعينى عليها ، ولكن سمعت أحاديث الصديقات ، ولا أدرى

لماذا أعجبتني أنباء هذه الدفاتر التي تؤمن على الأسرار وتلقى الأحاديث حين تأوى كل واحدة منهن إلى غرفتها بعد أن يتقدم الليل .
وقد تفزق عني صديقتاي وشغلت عنهن وعن أحاديثهن بما يكون من حياة الأسرة ، حتى إذا تقدم الليل وآويت إلى غرفتي وخلوت فيها إلى نفسي لم أجد ميلاً إلى النوم ، وإنما أطلت الاضطراب في الغرفة والتشاغل بالترتيب والتنسيق كأنى كنت أريد أن أمد الأسباب التي تصل بيني وبين النوم ، وأن أطيل السهر وأحتفظ باليقظة ، فلما لم يبق ترتيب ولا تنسيق ، ولم تنازعني نفسي إلى النوم ، أردت أن أتشاغل بالقراءة ، وأستعين بها على ما أريد من سهر ، فأخذ هذا الكتاب ولكنى لا أكاد أنظر فيه حتى أصرف عنه فأخذ كتاباً آخر فلا يكون حظه خيراً من حظ الكتاب الأول ، فألبث جامدة شاردة النفس حيناً ثم تثوب إلى نفسي ، وإذا أنا راغبة عن النوم زاهدة في القراءة ، منصرفة عن الحركة في التنسيق والترتيب .

وماذا أنسق ؟ وماذا أرتب ؟ وقد بلغت من ذلك ما أريد وأكثر مما أريد ، حين آويت إلى هذه الغرفة منذ ساعة . وهنا أشعر بالحاجة إلى أن أكتب ، ولكن ماذا أكتب ؟ ولن أكتب ؟

هنا يعاودني ذلك الخاطر الذي عرض لي حين كنت أستمع إلى حديث الصديقات ، فأذكر ائتمان الدفاتر على الأسرار والتحدث إليهما بنجوى الضمير . ثم أذكر أنى لا أملك دفترًا أأمنه على أسرارى ،

وأفضى إليه بأحاديث نفسى وليس من شك فى أنى قدرة على أن أمد يدى فأخذ ما أشاء من الورق وألقى إليه بما أحب من حديث . ولكنى أنفر من ذلك نفوراً شديداً فلا بد من أن أختار الدفتر الذى أتحدث إليه ، كما أختار الصديق الذى أوثرها بالمودة والإخاء ، ولا بد من أن تكون هنالك ملاءمة بين نفسى وبين هذا الدفتر . وإذا أنا أفكر فى شكل هذا الدفتر ، وما ينبغى أن يكون عليه من الجودة والظرف ومن الشكل الأنيق المعجب ، ثم يجب أن يكون خليقاً بكتمان السر والضمن به على الذين قد يتطفلون أو يتطلعون إلى القراءة واستباحة ما أؤمن عليه .

ولإذن فلن أكتب الليلة ولن أفضى بسرى إلى دفتر من هذه الدفاتر العادية أو ورقة من هذه الأوراق المنشورة ، ولا بد من أن أنتظر إلى غد حتى إذا اخترت الدفتر ، وأحسن اختياره خلوت إليه خلوة الصديق إلى الصديق الذى يلائمه ويشاكله ، فتحدثت إليه أحاديث فيها الثقة والأمن ، وفيها اللذة والمتاع ، وفيها قبل كل شىء ارتفاع الكلفة وزوال الحرج .

ولو أنى أخذت دفترًا من تلك الدفاتر العادية أو ورقة من تلك الأوراق المنشورة ، ثم حاولت أن ألقى إليها سرًا أو أفضى إليها بحديث لما وجدت فى نفسى شيئاً . فقد كنت أمس خالية النفس من كل سر وكل حديث ، لا يشغلنى إلا التفكير فى أن يكون لى دفتر كغيرى

من صديقتي ، وفي أن ألقى إلى هذا الدفتر أسراراً كالتى يلقينها ، وأفضى إليه بأحاديث كالتى يفضين بها . وليس أدل على ذلك من أنى قد أصبحت فغدوت على دار من تلك الدور التى تهىء للناس أنفَس ما يحتاجون إليه من أدوات الكتابة والتحرير ، فلم أتخبر دفتراً فحسب ، ولكنى تخيرت معه قلماً رقيقاً جميلاً غالى الثمن أيضاً ، ثم أخفيت ذلك فى غرفتى ، ثم جعلت أفكر فى ذلك اليوم كله ، ثم جعلت كلما أملت بغرفتى نظرت إلى القلم ومسست الدفتر بيدي مساً رقيقاً ، كأنما أريد أن ألاحظه وأبارك عليه ، ثم انقضى النهار وتقدم الليل ، وجعلت آخذ نفسى بشيء من العنف حتى لا أتعجل الحلوة إلى نفسى والإيواء إلى غرفتى .

ثم هأنذا هذه قد آويت إلى غرفتى ، وخلوت إلى نفسى ، وأخذت الدفتر الجميل فبسطته أمامى ، وجعلت أنظر فى صحفه النقية فأطيل النظر ، كأنما أريد أن استبشّر نقاءها وصفاءها عما يمكن أن يكون لهما من سر أو حديث . وأى عجب فى ذلك ؟ فقد اتخذت هذا الدفتر صديقاً أميناً ، ولا بد بين الصديقين من تبادل الود والحديث والثقة والأسرار ، ولكن هذه الصحف النقية الصافية لم تنبشّ بشيء ولم تلق إلى نفسى شيئاً .

وإذا أنا آخذ القلم عازمة حازمة كأنما أريد أن أحطم ما بيننا من الثلج كما نقول فى أحاديثنا اليومية ، وأن أبدأ بالحديث تشجيعاً لهذه

الصحف على أن تتحدث ، ولكنى لا أجد شيئاً أقوله ولا حديثاً أكتبه ، وأكبر الظن أن نقاء هذه الصحف الخالية من كل سر لا يعده إلا نقاء هذه النفس التي نريد أن تتحدث إليها والتي لا تجد ما تتحدث به فهي تتكلف وتتصنع وتخلق الحديث خلقاً .

وإني لأفكر في هذا فأذكر مواقف وقفنها في عهد الطفولة ، وما زلت أقفها إلى الآن ، وقد كدت أبلغ العشرين من العمر ، وهي مواقفي من القسيس . فما أكثر ما أضعت وقته وأضعت وقتي بما كنت أحاول من الاعتراف ، فقد كنت أرى ذلك فرضاً على وأرى أن نفسي لن تستريح ، وأن ضميري لن يطمئن إلا إذا قمت من القسيس مقام المعترفة بالخطيئة ، ثم مقام النادمة على الخطيئة ، ثم انصرفت عنه وقد ظفرت منه بالمغفرة . ثم أبحث في سيرتي فلا أنكر شيئاً ، وأبحث في دخيلة نفسي فلا أنكر شيئاً ، وألتمس مع ذلك شيئاً . أنكره لأعترف به أمام القسيس فلا أجد ما أنكر ، فأخترع الخطايا اختراعاً وألقيها إلى القسيس متكلفة غالية في التكلف . فيقبل القسيس مني حيناً ويرفض حيناً آخر ، حتى انتهى به الأمر ذات يوم إلى أن كلفني أن أعترف له بكل ما أثقلت به نفسي من هذه الأكاذيب والأباطيل ، ونبهني إلى أن الكذب عليه كذب على الله ، وإلى أن هذه الخطيئة الساذجة في ظاهر الأمر قد تستحيل إلى خطيئة مهلكة ، لأنها تعودني الكذب وتغريني بالتكلف ، وتدفعني إلى النفاق ،

وتنشئ بينى وبين الآثام صلوات قد تنتهى بي إلى الشر .
 فأقلعت منذ ذلك اليوم عن انتحال الخطايا وتكلف الآثام
 للقيس ، ولكننى ألاحظ الآن أنى قد جلست إلى هذا الدفتر لأنتحل
 الأحاديث وأتكلف الأسرار وما فى نفسى من حديث وما لضميرى
 من سر . وما أدرى أيهما خير ؟ أن تظل نفسى نقية كهذه الصحف
 النقية ، وأن أدخلو إلى هذا الدفتر ساعة فى كل يوم فأنظر فى صحفه
 النقية الصافية لأرى فيها نفسى نقية صافية أم أن تزدهم نفسى بالأحاديث
 والأسرار فلا أدخلو إلى هذه الصحف إلا ألقيت عليها من سواد نفسى
 ما يمحو صفاءها ، ويزيل نقاءها ، ويجعلها مرآة مظلمة لنفس
 مظلمة .

أما قبل أن أسمع حديث صديقتى عن الدفاتر والأسرار فقد كنت
 أؤثر الأولى ، وأما منذ سمعت أحاديثهن وكلفت بمثل ما كلفن به فإنى
 لا أدرى أى الأمرين أحب إلى ؟ بل أنا أدرى أيهما أحب إلى ، فهذه
 صحف من هذا الدفتر كانت نقية صافية منذ حين قد جرى عليها
 هذا القلم فصيرها إلى هذا السواد الذى لا يغنى وجعلها مرآة سوداء
 لنفس يشوبها الاضطراب ، ويشيع فيها القلق ، فيخرجها عما ألفت
 من صفاء ونقاء .

ويحك أيها الدفتر العزيز! ويحي منك!! لقد شغلتنى يومى كله ، فلم أكد أفكر إلا فيك منذ أصبحت إلى أن أمسيت ، ولقد كانت تشغلنى عنك الحوادث الطارئة والأحاديث العارضة ، بينى وبين أسرقى أو بينى وبين بعض أترابى ، ولكنى لم أكن ألبث أن أعود إليك ، فأذكرك ثم أراك ، ثم أتمثلك مبسوطاً بين يدى ، ثم أسأل نفسي عما يمكن أن ألقى إليك من سر ، أو أفضى به إليك من حديث .

وما أكثر ما خطر لى من الخواطر ، وما أكثر ما عرض لى من المعانى ، وما أكثر ما ثار فى قلبى من العواطف ، وما أكثر ما استبان لنفسى من الرأى ، ولكنى ضقت بهذا كله آخر الأمر ، ورأيت أنك ستصبح لى شغلا شاغلا وعلّة ملحة ، وأشفت أن تفسد علىّ حياة صالحة جرت إلى الآن على خير ما تجرى عليه حياة أمثالى من الفتيات ، فأزمت الإعراض عنك ، والتشكر لك ، والاشتغال بما كنت أشتغل به قبل أن أعرفك من عمل ورياضة فى النهار ، ومن حديث وقراءة فى الليل . ثم أخذت فى بعض ما كنت آخذ فيه ، ولكنى رددت إليك ردّاً ، وأكرهت على التفكير فيك ، ثم التحدث إليك إكراهاً . وهأنا هذه أجلس إليك بعد أن هدأ كل شيء ، وثاب كل فرد من

أفراد الأسرة إلى غرفته ، فخلت الدار منا ونحن مع ذلك نملؤها ونعمرها ، ونشيع فيها حياة تسكن الآن لتنشط إذا أسفر الصبح .
هأنأ هذه أجلس إليك بعد أن هدأ كل شيء ، ولعلّي تعجلت هذا الهدوء فيما ظهر من أمرى ، وما أشك في أنى تعجلته فيما كنت أخفى من حديث النفس ونجوى الضمير . وأنا كما كنت أحدثك أمس ألتمس تعليل هذا وتأويله ، فيروغنى ما ينتهى إليه بحثى من التعليل والتأويل ، فقد يخيل إلى أن قلبى فارغ يريد أن يمتلئ ، وأن نفسى ساكنة كسلة تريد أن تنشط وتعمل ، وأن ملكاتى كلها معطلة يؤذيها هذا التعطيل فهى تلتمس لنفسها منه مخرجاً ، ولا تجده إلا فى معرفة جديدة لصديق جديد .

وأنا أعلم أبواب النشاط أمامى مفتحة ، لو شئت ، فأنا أستطيع أن أشارك فى أعمال البيت ، وأنا أستطيع أن أشارك فى الرياضة ، وأنا أستطيع أن أقرأ وأن أزور وأستزير ، وآخذ فى ألوان مختلفة من الحديث ، ولكنى منصرفه عن هذا كله ، وانصرافى عنه يشتد من حين إلى حين ، وأنا أحس شوقاً إلى شيء جديد ألحه ، ولا أتبينه ، تحسه أعماق نفسى وضمير قلبى ولكنه لا يستبين لعقلى ولا ينبجلى لرأى ، فأنا حائرة دون أن أعرف مصدر هذه الحيرة ، هائمة دون أن أعرف موضوع هذا الهيام ، مشوقة دون أن أتبين غاية هذا الشوق ، وأنت تسلينى عن هذا كله ، وتقوم فى نفسى وقلبى مقام هذا كله ، فأنا

أظهر لك نفسى كما هى وقلبي كما هو ، ولعلى أتبسط إلى أبعد من هذا فأجلس إليك فى لبسة المتفضل ، لا متحرجة ولا متأنفة . ولا متكلفة شيئاً يتصل بالزى أو بترتيب الهندام ، إنما هى الحرية المطلقة حرية النفس وحرية الجسم ، أصطنعها متى أغلقت الباب من ورائى وجلست إليك . وأنا أجد فى هذا راحة وطمأنينة ، ولكنى أجد فى هذا شيئاً يسيراً خفياً من قلقى يتردد فى ضميرى بين حين وحين . فإذا تقول أى ؟ وماذا يقول أبى ؟ وفيم يفكران لو أنهما قرأا هذه الأحاديث التى أسرها إليك ؟ هذه مشكلة جديدة لا بد من أن أجتهد فى حلها . فلم يكن لى على أبوى سر أو كنت أحتفظ بسرى . وبما يخطر لى من السخف فى هذا الضمير الذى لا يظهر عليه الآباء والأمهات ، ولكنى الآن أجهر بهذه السخافات وألقيها إليك . وأنت تستطيع أن تضمن لها البقاء ما تركت آمناً محفوظاً من العاديات ، ولكنك لا تستطيع أن تؤمن نفسك من أن تمتد إليك الأيدى وتجرى على صفحاتك العيون . أنت حافظ للسر ولكنك لا تستطيع له كتماناً . فلا بد من أن أعينك على هذا الكتمان ولا بد من أن أخفيك وأبالغ فى إخفائك على الناس جميعاً ، وعلى أبوى بنوع خاص وعلى أخى هذا العفريت المارد بنوع أخص . وما كان أغثنى عن هذا الجهد الجديد ، ولكن لا بد مما ليس منه بد .

ولكنى أثبتك هذه الأحاديث ، وأنت لا تعرف من أمرى شيئاً .
ألست ترى أن هذا غريب ؟ إني لا أفضى بأيسر أمرى إلى أحد حتى
أعرفه وحتى يعرفنى ، فكيف بى أظهر لك نفسى كما هى ؟ ولم أعرفك
إلا أمس ، وأنت لا تعرف من أمرى شيئاً . إني لغافلة ذاهلة حين
أتصور فيك العقل والشعور والمعرفة ، وحين أتحدث إليك كما أتحدث
إلى الناس ، ولكنى مضطرة إلى ذلك مكرهة عليه ، لا أستطيع أن
أرى فيك إلا صديقاً ، وإلا صديقاً يسمع لى ويفهم عنى ، لأنى فى
حاجة إلى هذا الصديق ، وإن كنت لا أدرى مصدر هذه الحاجة ،
ولولا ذلك لما اشتريتك ، ولما اتخذتك أميناً على السر وحفيظاً على
نجوى الضمير .

ولست أرى بذلك بأساً ، وقد قرأت فى بعض الكتب أن بعض
بلاد الشرق كانت تشتري الرقيق من الصبية فتنميهم وتربيههم وتؤدبهم
وتدربهم ، ثم تتخذهم لها قادة وملوكاً . وما أنا فى حاجة إلى أن أتملك
أو أربيك أو أؤدبك أو أدربك لأتخذك لى صديقاً . فأنت تكفينى
كما أنت ، وأنت بعد هذا كله تعينى على أن أئمنى نفسى وأربيها ،

وعلى أن أؤدب نفسي وأدربها ، وعلى أن أعرف نفسي حين أعرفها لك ، وأقدمها إليك . فأنت صديقي ، وأنت نجبي ، ولا بد للصديق من أن يعرف صديقه ، ولا بد للنجي من أن يعرف نجبه . فاعرفني إذن . وإلى مقدمة إليك نفسي كما عرفت بها بل كما جهلتها ، لأنني سأظهرك عليها باحثة عنها ، ملتزمة تعليل كثير مما صدر عنها من عمل وتفكير لم أفهمه حين صدر عنها ، ولكنني أظن إني سأفهمه الآن بعد التفكير والروية .

اعرفني إذن لأنني سأقص نفسي عليك ولأنك ستصاحبني منذ اليوم وستتلقى أسرارى وستحاسبني أو ستعيني على أن أحاسب نفسي عن كل ما أعمل ، وعن كل ما أجده .

أليس من الغريب أنك لا تعرف اسمي إلى الآن ! فليكن هذا أول ما تعرف من أمرى ، فأنا فتاة سأبلغ العشرين بعد أيام تسميها أسرته لين ، ويسميها الناس مدلين مورل .

وما أنا متحدثة إليك بتاريخى . البعيد فقد استعرضت ما أذكره منه فى أثناء النهار فلم أجده فيه غناء ، وأشفقت أن أقصه عليك فتسخر منى وتضيق بى لأنه تاريخ الألو ف من الفتيات الفرنسيات اللاتي ينشأن فى الطبقات الوسطى من أهل الريف الفرنسى . ولكن يحسن أن تعلم أن الحرب الكبرى قد أدركتني حين كدت أمم الرابعة عشرة من عمرى ، وقد كنت تلميذة تنهياً للشهادة الثانوية ، جادة فى

الدرس مشغوفة بالعلم دائبة على التحصيل ، أتمت عامها الدراسي وظفرت بجوائز كثيرة ممتازة ، وعادت إلى أهلها في قريتهم هذه في عطف من أعطاف الجبل في السفوا ، سعيدة راضية عن عامها مستبشرة مغتبطة بما ستتعلم به من الراحة والسياحة وألوان الرياضة مع إخوتها الثلاثة ، وأترابها الكثيرات أثناء الصيف .

وكنت أصغر إخوتي سنًا وكان أكبرنا قد تخرج في كلية الطب ليعمل مع أينا في صناعته ثم ليخلفه على عيادته بعد عمر طويل ، فكان قد أتم الرابعة والعشرين من عمره ، وكان ثاني إخوتي قد أتم الحادية والعشرين من عمره وظفر بإجازة الليسانس من كلية الحقوق ، وهو يتهيأ للعمل عند بعض المؤثمين ولتحصيل إجازة الدكتوراه أثناء ذلك ، فأما الثالث من إخوتي فكان في السابعة عشرة من عمره قد ظفر بالشهادة الثانوية ، ويريد أن يذهب إلى باريس ، ليتهيأ فيها لدخول مدرسة المعلمين .

وكانت أسرتنا راضية موفورة ليست بذات ثروة ضخمة ، ولكنها ليست ضيقة اليد ولا سيئة الحال ولا عاجزة عن أن تعيش عيشة فيها كثير من رغد وخفض ، وآية ذلك أنا كنا نتهياً في ذلك الصيف لألوان من العيش لا يتهيأ لها الذين قتر عليهم الرزق .

فقد كان أخوأي يريد أن يترك فرنسا ليذهب أحدهما إلى إيطاليا ، والآخر إلى بلاد اليونان والترك . وكان أصغر إخوتي يريد أن يلحق

برفاق له في جبال الفوج ، وكنت أتهياً لأذهب مع أبوى وبعض أترابى إلى ساحل المحيط في بيارترز . ولكن جو أوروبا يزدحم بالسحب ثم تخفق فيه البروق ، وتقصف فيه الرعود ، ثم تنور العاصفة فتحطم كل أمل وتغير كل اتجاه ويذهب أخواى لا إلى إيطاليا ولا إلى اليونان ولكن إلى حيث تريد توجيههما وزارة الحرب . ويذهب أبى متطوعاً للخدمة الطبية في بعض المستشفيات قريباً من الحدود ، وأبقى مع أمى وأخى في قريننا هذه آمنين من غارات الحرب ، غير آمنين أنباءها المنكرة ، ومناظرها البشعة ، إذا انحدرنا إلى هذه المدينة أو تلك ، فأرأينا هذا السيل الذى كان يتدفق بالجرى على المستشفيات ، وذلك السيل الذى كان يتدفق بالمحاربين على الحدود . ولكنى مع ذلك لم أذق الحرب ، ولم أبلُ مرارتها ولم أحس لذعها الذى يحرق القلب ويغرق العين ، إلا بعد أن قدمت الحرب وبلغت من عمرها البشع ستة أشهر ، حين جاءنا النبأ بأن أكبر أخوى قد صرع في أحد الميادين . هنالك عرفت الحرب وأحسست آلامها ، ولكن أسابيع لم تمض على هذا النبأ حتى يلحقه نبأ آخر بأن ثانى أخوى جريح يمرض في أحد المستشفيات ، ثم لا يتم العام حتى تظهر في الأسرة ظاهرة من جنون لم ينكرها أبى حين استشير فيها بالكتب والرسائل ، وأنكرتها أمى ولكنها لم تجرؤ على أن تظهر إنكارها إلا بالإذعان والبكاء المتصل ، وأنكرتها أنا أشدّ الإنكار وأعنفه ولكن أحداً لم يسمع لى وإنما كانت تلقانى الأسرة بالتلطف والتعطف والتسلية ،

٢٠

وهذه الظاهرة هي تطوع أخى الصغير للخدمة العسكرية قبل أن يبلغ سن الحرب . وكان يقول قد صرع أحد أخوى وجرح الآخر وما ينبغي أن تخلو ميادين الحرب من أحدنا .
ثم يسافر ذات يوم مع الصبح فنودعه ثم لا نراه إلى الآن .

لم تكن ليلتي سعيدة أمس ، وإنما انقضت شاحبة يملؤها الحزن
والبؤس والشقاء . فقد انصرفت فجأة عنك أيها الدفتر العزيز وحيل
بينى وبين المضى فيما كنت أقص عليك من أنباء نفسى وأحاديث
أسرتى .

صرفنى عن ذلك ما أثارته هذه الأحاديث وتلك الأنباء من شعجون
وأحزان امتلأ بها قلبى وغرق فيها ضميمى ، والتبست لها الأمور على
نفسى ، ثم لم تلبث أن استأثرت بحسى الظاهر فأجرت فى جسمى رعدة
خفيفة أول الأمر ، ثم عنيفة بعد ذلك ، لم تهدئها عنى إلا هذه الدموع التى
انحدرت من عيني غزاراً . لقد كنت أحسب أن قد هدأت اللوعة وسكت
عنى وعن الأسرة هذا الجزع الذى ملكنا وأفسد علينا أمورنا كلها حين
انتهى إلينا النبأ بمصرع أخى الصغير . فإذا أنا لا أكاد أبدأ الحديث
إليك حتى ينكأ الجرح وتثور العاصفة ، وحتى يضطرب من حولى كل
شئ ، وحتى يفسد على كل شئ ، وحتى أغرق فى هذا الحزن الشامل ،
الذى يصرفنى عنك وعن نفسى والذى ينسينى مكانى منك ، ومكانى
من كل شئ ، والذى يشغلنى ويشتمل على اشتهاً تاماً ، فأنفق

ليلة ما أدرى كيف أنفقتها ، ما أعرف إلى أى لحظة منها بقيت يقضى ،
وفى أى لحظة منها أدركنى النعاس ، وإنما أتنبه لنفسي حين يمسنى
برد الصباح ، فإذا أنا كما كنت حين بدأت الحديث إليك ، لم أنتقل
من مكانى ولم أنتحول عن مجلسى ولم أدر كيف قضيت الليل .

هنالك أنهض فزعة مرتاعة متسائلة ماذا كان يمكن أن يكون لو أن
البرد لم يوقظنى ؛ ولو أنى لبثت على هذه الحال حتى تستيقظ الأسرة
وحتى تظهر علىّ فى هذا الوضع الذى كنت فيه ؟ هنالك أعمد إليك
فأخفيك ، وأعمد إلى سريرى فأحدث فيه شيئاً من الاضطراب ، ثم
أوى إليه كارهة متكلفة ، لتعلم الأسرة أنى قد قضيت ليلة عادية لم
أخرج فيها على المألوف ؛ ولكنى تبينت من هذا كله أنى كنت أكذب
على نفسى ، أو أن نفسى كانت تكذب علىّ حين كنت أزعم أنى
قد أخذت أتسلى عن الحزن وأتعزى عن كوارث الحرب . وما أشك
الآن فى أن الأسرة كلها تكذب على نفسها فتتكلف السلو ، وتتصنع
العزاء ، وتلقى حجاباً رقيقاً على أحزانها وآلامها ، تتخذ من مشاغل
الحياة وأغراضها المتصلة لأنها لا تستطيع أن تمضى فى هذا الحزن العنيف
جاهرة به مظهرة له . لا تستطيع ذلك لأن للحياة ظروفها وبواعثها
إلى العمل والجد ، ولا تستطيع ذلك لأنها تحسب لمراقبة الناس حساباً
أعظم مما تقدر وتظن . وما أشك الآن فى أننا جميعاً نلتقى بوجوه باسمه
أو غير مكرثة ، ونمضى فى حياتنا بهذه الوجوه التى تبتسم وتظهر التجلّد ،

ولكنه ابتسام لا يدل على شيء إلا على التكلف والتصنع ، ولا يصدر عن شيء إلا الحزن المر ، واليأس الممزق للقلوب . ولكنه تجلد يسير هين لا يكاد يثبت إلا متهاكًا متضائلًا ، يكفي أن تعرض له الذكرى فإذا هو يتبدد ويزول ، كما يتبدد سحب الصيف . وآية ذلك أنا نتجنب إذا التقينا وأخذنا في الحديث ذكر الفقيد الشهيد ، والإشارة إليهما من قريب أو بعيد مخافة أن يخرج ذلك بنا عن طور التكلف هذا الذي أخذنا به أنفسنا ، وأجرينا بيننا عهداً صامتاً على أن نلزمه ، ونمعن فيه لتستقيم لنا الحياة ، كما نستطيع أن تستقيم لقوم لا يجدون ينبوع الحياة في قلوبهم ، وإنما يستمدون حياتهم من الخارج ويستعبرونها من الحوادث والظروف ، فهم يحبون متكلفين ، ولولا هذا التكلف لما ظفروا من الحياة إلا بأسباب واهية لا تغني عنهم شيئاً .

وما أشك الآن في أن أمر أبويّ شر من أمرى ، فإن لى من الشباب نشاطه وآماله ما يسلينى ، رضيت ذلك أم كرهته ، وما يعيننى على أن أتجنب الذكرى ، وأفر من الحزن ، فأما أبواى فليس لهما من هذا كله شيء . فقد فقدنا نصف آمالهما حين فقدنا اثنين من أبنائهما الأربعة ، وبقي لهما نصفها الآخر كثيباً شاحباً لا يثير نشاطاً ، ولا يدعو إلى جد ، ولا يكاد يبعث في النفوس فرحاً ولا ابتهاجاً ، وهما يتجنبان الحديث في كل هذا بمحضر منا ولكنهما يضمران

غير ما يظهران ، ويتحدث كل منهما إلى صاحبه بما يذكي النار في قلبه ويضاعف الحزن على نفسه ، وكل منهما مع ذلك رفيق بصاحبه شفيق عليه يخفي عليه أكثر مما يظهر له . لهما الله ما أشد ما يقاسيان وما أعظم ما يألم كل منهما إذا خلا إلى نفسه ، واستطاع أن يرفع هذا الحجاب الرقيق المتكلف ، وأن يلتقي وجهاً لوجه هذه الصورة البشعة التي تركتها لنا الحرب والتي رأيتها أمس . فأنفقت أشنع ليلة وأشقاها .

ولم يكن النهار خيراً من الليل ، وكأنما اصطلحت مظاهر الطبيعة
 وأسباب الحزن على نفوس هذه الأسرة البائسة ، فاضطرتها إلى هذا
 السجن البغيض الذى هو أثقل شئ عليها ، لأنه يخلو بينها وبين
 حقائق الأشياء ، ويكرهها على أن تخلو إلى نفسها وتعكف على آلامها
 وتدعن لهذه الخواطر المحزنة المؤلمة التى تضطرب فى نفوس المحزونين
 والبائسين .

فقد أصبحنا وإن الشمس لتنشر على القرية وما حولها من هذه
 الآكام اليسيرة التى ترتفع وتتدرج فى لين ورفق ودعة غشاء رقيقاً جداً
 من الضوء ، يسحر العين ولكنه يثير فى النفس شيئاً من الحزن والأسى
 لما ينقصه من القوة والثبات والاستقرار ، ويحمل النفس على أن تتساءل :
 أقادر هذا الضوء على أن يثبت ويقوى فيغمر الأرض بحرارته وجماله
 ويبعث فيها القوة والنشاط ، أم منهزم هو أمام هذه السحب التى تسعى
 من بعيد سعيّاً رقيقاً ولكنه ملح ؟ وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة
 حتى كان جواب هذا السؤال واضحاً ، فقد انجاب عن الربى والآكام
 هذا الغشاء الرقيق المتلهلhel من ضوء الشمس ، وامتأ الجو بهذا السحاب
 الذى كان يسعى ثقيلًا يبطئ من ثقله لا من رفقته ولا من كلسه . وهذه

الآكام تحجب عنا ، وهذه الربى تخفى علينا ، وهذه آفاقنا تحد من كل وجه ، وهذا السحاب الثقيل البطيء يدنو من الأرض ويسعى في السماء وكأنه يزحف على الأرض زحفاً . وهذه ظلمة كثيفة تأخذنا من كل وجه ، وما نحن أولاء نتحدث فيما بيننا بأن يومنا لن يكون مضيئاً ولا مشرقاً ولن يكون يوم عمل ونشاط .

وما نطيل الحديث في ذلك فقد أخذنا نسمع قصص الرعد بعيداً ولكنه يدنو ، وإنها لعاصفة عنيفة ، قد ثارت في السماء فوقت الحركة وألحأت الناس إلى دورهم ، وهذا المطر ينهمر غزيراً عنيفاً وكل شيء يدل على أنه سيتصل وسيستغرق اليوم كله . وما نحن أولاء قد لجأنا إلى دارنا كما لجأ الناس ، وخلقنا إلى أنفسنا وأخذنا نشغلها بالحديث حيناً ، وبهذه الأعمال اليسيرة حيناً آخر ، ولكن الغريب في أمرنا أن صبرنا على الحديث ضئيل ، ليس له حظ من ثبات أو استقرار ، كأنما يخاف بعضها بعضاً ، وكأنما يشفق بعضها من بعض . وكأنما نحذر إن اتصل الحديث أن ينتهي بنا إلى ما لا نحب ، فنحن نقتصد فيه اقتصاداً ، وينتهي بنا إلى البخل والإغراق في الصمت . وأى شيء أبغض من الصمت المتصل بين أسرة متحابية متعاطفة ؟ لا تستطيع الحديث ، لأنه قد ينتهي بها إلى ما تكره ، ولا تستطيع الصمت لأنه قد يكون أسرع بها من الحديث إلى ما لا تحب .

وإذن فليفر بعضها من بعض حتى لا يؤذى بعضها بعضاً بالحديث

ولا بالصمت ، وقد فعلنا . فأما أنا فدخلت إلى الكتب ، وأما أبواي وأخي
 فالله يعلم إلى إلامَ خلّوا ، وبماذا اشتغلوا ؟
 وتجمعنا المائدة ، فياله من اجتماع كتيب كله حيرة وكله ألم ،
 وكله تردد بين هذا الحديث المتقطع الذي لا غناء فيه ، وهذا الصمت
 الكثيف الملح الذي يريد أن يتصل ، والذي يقول أكثر من كل حديث .
 ومع ذلك فقد لاحظت غموضاً في وجه أمي وشيئاً من الألغاز في وجه
 أبي ، ولاحظت فيما كانا يلقيان إلى من النظرات شيئاً من العناية
 لم أعوده من قبل ، فيه إشفاق ظاهر وحنان قوى ، وحسب لم يتعدوا
 أن يظهره على هذا النحو . ولم يكن حديثهما إلى ، على تقطعه وندرته ،
 يخلو من بعض هذا . فقد كان الصوت رقيقاً عذباً أرق وأعذب مما
 ألفت ، وكانت الحمل غامضة ملتوية بعض الشيء ، وكان فيها
 تلميح للمستقبل ولكنه تلميح حزين ، يريد أن يخفي حزنه وأن يظهر
 مسروراً مبتهجاً بعض السرور والابتهاج . ولم يكن أخى بأوضح
 من أبوي وجهاً ولا نظراً ، ولكن غموض وجهه ونظراته لم يكن يشوبه
 الحنان والعطف ولا الإشفاق والحب ، وإنما كانت تشوبه هذه
 الدعابة الماكرة التي ألفتها منه ، والتي ضقت بها غير مرة لأنها لا تخلو
 من قسوة تبعث الحنق وتثير الغيظ ، وربما رأيت على وجهه بين حين
 وحين ابتسامة لا تخلو من سخرية ، ولكنها في الوقت نفسه لا تخلو
 من مودة ودعابة ومزاح . ليس من شك في أن بينهم أمراً يخفونه ،

ولا يريدون أن أظهر عليه إلا شيئاً فشيئاً ، كأنهم يهينوني له تهينة ،
ويعدونني له إعداداً . فما عسى أن يكون هذا الشيء ؟
لقد فكرت فيه ، وزعمت لنفسي أني لا أعرفه ، وأنى حريصة
على معرفته ، وأنى ضيقة بجهلي له وغموضه عليّ . وما أرى إلا
أنى كذبت على نفسي ، وما أرى إلا أنى تعمدت هذا الكذب ،
فإن نفوسنا — نحن الفتيات حين نبلغ من حياتنا هذا الطور الذي
أنا فيه — معقدة أشد التعقيد ، ملتوية أعظم الالتواء . والغريب
أن آباءنا يظنون بنا السذاجة ويأخذوننا كما يروننا وينتهي إيمانهم
بسذاجتنا إلى أن يقنعنا نحن بهذه السذاجة ، وإلى أن يخدعنا نحن
عن أنفسنا ، وإلى أن يخيل إلينا ويلقى في روعنا أننا كما يظنون ،
لا نفهم الحياة ولا نتمعقُها . ولا نكاد نعرف ما يهيا لنا وما يراد بنا .
ونحن ننظم سيرتنا على هذا النحو من النفاق ، من النفاق الذي لا نكاد
نحسه ولا نتبينه ، فضلاً عن أن نعتمده أو نقصد إليه .

كذلك أرادت أوضاع الحياة الاجتماعية أن يخدع الآباء عن
أبنائهم وأن يخدع الأبناء عن أنفسهم وأن تمثل في كل دار بين الشباب
والشيوخ أو بين الجيل الذي يستقبل الحياة والجيل الذي يستدبرها
قصة قوامها هذا النحو من الخداع تضحك أحياناً ، ولكنها تحزن
وتسوء في كثير من الأحيان .

زعمت لنفسي أصيل هذا اليوم أني لم أفهم غموض أبوي وتلميحيهما

وأني لم أفهم غموض أخى ودعابته . ولكنني كنت كاذبة على نفسي ، ولن أكذب عليك أيها الدفتر العزيز فقد عاهدتك على أن تعرفني كما أنا ، واستعنتك على أن أعرف نفسي . لقد فهمت عن أبوي وعن أخى كل شيء . إنما كانوا يعرضون بالمستقبل القريب ، ويشيرون إلى خطبة تضطرب أحاديثها في الجو من حولي ، وتهايأ لها الأسباب تهية وهم يخفون أمرها علىّ حتى يتم الإعداد لها ، وحتى يصبح الحديث إلىّ فيها مجدياً لا ينتهي بي إلى شك ولا إلى خيبة أمل . وأنا أعرف هذا كله وأرقب هذا كله محبة لأبوي ، راحمة لسداجتهما مكبرة لحنانهما ممزقة القلب من الحزن أن تنهياً الحياة لتبتسم لي ، ومن حولي كل هذا الحزن العابس وكل هذا الألم العميق .

ولكنى لا أعرف من أمر هذه الخطبة التى تهباً ويتصل فيها حديث الأسرة أكثر مما ذكرت . وما أخفى عليك ولا على نفسى أيها الدفتر العزيز أنى قد ضقت بهذا الجهل ، وثقل على هذا الغموض ، وودت غير مرة لو استطعت أن أنفذ إلى قلب من هذه القلوب الثلاثة الكريمة التى تحيط بى ، وتمتلئ بحبى لأرى ما يثور فيه من عاطفة ، وما يضطرب فيه من تفكير ، ولكنى لم أحاول قط أن أسترق السمع ، أو أختلس بعض ما يتصل من حديث ، لأنى أرى ذلك نكراً بأباه الخلق ، وتنكروه سيرة الفتاة المهذبة التى نشئت تنشئة حسنة ، وربيبت تربية صالحة . وأى شيء أبغض من النسمع على الآباء والاحتياى فى استراق الحديث ؟ وقد أنحدر فى التفكير إلى أعماق نفسى فأستكشف شيئاً لا أكاد أحققه ، ولكنى أضيق به ضيقاً شديداً ، فقد يخيل إلى أن الذى دفعنى إلى أن أتخذك لى صديقاً ، وأحاول أن أفضى إليك بأسرار نفسى ، إنما هو هذا الشعور الغامض الذى وجدته منذ أيام حين أحسست الغموض الطارئ على ما بينى وبين الأسرة من صلة ، وحين تبينت أو خيل إلى أنى أتبين من هذا الغموض تفكيراً فى

الخطبة وتهيئة للزواج . لم أكن أستطيع أن أبادى بهذا الحديث أخى ، أو أحد أبوى ، فضلا عن أن أبادى به إحدى صديقاتى ، وقد هممت أن أطيل الحديث فيه إلى نفسى مفكرة مقدرة ، ولكنى وجدت فى ذلك مشقة وعنه عجزاً .

لم أكن أحاول التفكير فيه حتى أصرف عنه وتدفع نفسى إلى التفرق ونحو طرى إلى الشرود ، فلم أر بدءاً من الالتجاء إليك ، والاعتماد عليك ، لأجمع هذه النفس المتفرقة ، وأرد هذه الخواطر الشاردة . وما أرى أنى قد ألقيت إليك كل هذه الأحاديث إلا فراراً من هذه الحقيقة التى أواجهها الآن ، وتأخيراً لهذه الساعة التى لا أستطيع الآن لها تأخيراً . إنى لأجد مشقة شديدة فى تحليل هذا الشعور الذى يغمر نفسى ، ويملاً قلبى منذ استكشفت سر أبوى دون أن أصل إلى كنهه ، أو أتبين جليته ، فأنا سعيدة من غير شك وإن كنت أخفى هذه السعادة حتى على نفسى لأن الأوضاع الاجتماعية تريدنى على ذلك . أنا سعيدة حين أفكر فى هذه الخطبة التى تهبأ ، وفى هذا الزواج الذى يعد ، وأى فتاة مثلى لا تسعد بالتفكير فى الخطبة والزواج وأنا نائرة أشد الثورة ، بأن أبوى يفكران فى ذلك وحدهما ، ويستأثران به من دونى ، ولا يشركاننى فيما يكون بينهما من تفكير أو حديث ، كأنما الأمر يعينهما أكثر مما يعينى ، ويمسهما أكثر مما يمسنى ، وأنا مشفقة من عواقب استئثارهما بهذا الأمر ، وانفرادهما بالتفكير

فيه ، أخشى أن يتقدما فيه إلى أبعد مما ينبغي وأن أصبح أو أمسى ذات يوم وإذا أنا أمام أمر واقع لا أستطيع أن أخلص منه إلا بالعنف الذى أكرهه ، وبالحلاف عن أمر أحب الناس إلى وآثرهم عندى وأكرمهم على .

ثم أنا بعد هذا وذاك حائرة ، يكاد حبي للمعرفة يقهر كل عاطفة أخرى فى نفسى ويملك على كل أمرى ، ويصرفنى لإلacen البحث والتفكير فىمن عسى أن يكون هذا الشاب ، الذى يفكر أبواى فيه ويهثان للصلة بينى وبينه .

يا للعجب ! ! متى يشعر الآباء بأن الأزواج لا يهيا على هذا النحو وبأن الخطبة لا تعد على هذا الأسلوب ، وبأن أمر الحب لا يدبر تدبيراً ؟ . ومع ذلك ، فقد قلت ، وما زلت أقول ، إني سعيدة بالتفكير فى الخطبة والزواج ، وآية ذلك هذا الدهول الذى يستغرق أكثر وقتى حين أخلو إلى نفسى ، والذى تملؤه أحلام غريبة ؛ منها الجميل الرائع ، ومنها الخيف البشع ، وكلها على ذلك يرضينى ، ويملا نفسى سروراً وابتهاجاً . ومن يدرى ، لعل فى تكتم أبوى واستئثارهما بالأمر من دونى بعض الخير ، فهو الذى يبيح لى هذه الأحلام ، ويغمرنى بهذا الدهول ، ويدفع نفسى إلى هيام لا يخلو من لذة ، لعل الأخلاق تنكرها ، ولعل الحياء — حياء العذارى — يمنعننى أن أسطرها أو أصورها ، لولا أنى أفضى بذات نفسى إلى صديق

مثلك أمين يتلقى الأسرار فيخفيها حتى على نفسه .

إنى لأستعرض عدداً غير قليل من الشباب الذى أظن بهم الكفاءة ، وأقدر أنهم خليون أن يفكروا فى ، أو يسألوا عنى ، أو يطمعوا فى القرب من أسرتى ، أستعرضهم وأرى نفسى تنتقل بينهم كما تنتقل النحلة بين الألوان المختلفة من الزهر ، لا تكاد تلم بهذه الزهرة حتى تنتقل منها إلى زهرة أخرى ، ثم إلى زهرة ثالثة ، وعلى هذا النحو . وإنى لأستحى من هذا الهيام الآثم الذى لا أرضاه من غيرى لو أقبل عليه غيرى ، ولكنى مع ذلك أعترف بأنى غارقة فيه ، مؤثرة له مستمتعة به معتذرة مع ذلك عن نفسى ، لأن أبوى هما اللذان دفعانى إليه حين استأثرا من دونى بالتفكير فى أمر هذه الخطبة ، ولو أنهما أظهرانى على ما يدبران من الأمر لاقتصرت هذه النحلة الهائمة المتقلبة على زهرة واحدة ، فوقفت عندها ولم تعدها إلى غيرها من الزهر . ولم تضطر إلى الاستمتاع راغمة بهذا الهيام الحلو البغيض .

وكذلك أنفق ساعات طويلاً مع هذا الشاب أو ذاك من شباب القرية ، ومن شباب القرى المجاورة فأسمع منه وأتحدث إليه وأبلى أخلاقه وأمتحن سيرته ، وانصرف عنه راضية حيناً وساخطة حيناً آخر ، حامدة مرة وناقدة مرة أخرى . وأنا مع ذلك سجيئة غرقى ، أو مضطربة فى البيت ، أو متزهة فى الحديقة ، خالية إلى نفسى على كل حال ، لا أرى من هؤلاء الشباب أحداً ولا ألقاه بحديث ، حتى

طال على هذا الأمر وثقل على نفسى هذا الهيام ، وأخذت أكره التفكير فى الخطبة والزواج ، وأتمنى أن ينجلى هذا الغموض وأن تتاح لنفسى هذه الهاتمة ، غاية واضحة تقف عندها ، مفكرة مقدرة فتقبل عليها آخر الأمر أو تنصرف عنها .

٧

وهذا يوم من الأيام ينقضى كما انقضت هذه الأيام القليلة الماضية ، لا تنجلي فيه الحقيقة لهذه النفس الحائرة ، ولا تستطيع نفسى أن تبرأ من حيرتها وأن تفكر في غير ما دفعت إلى التفكير فيه ، ومع ذلك فقد حاولت أن أشغلها عن ذلك بالقراءة وبالحدِيث . فلما لم تغن القراءة ولا الحدِيث تكلفت شيئاً من النشاط ، فخرجت للترويض وأبعدت في المشى ، ولكنى رجعت كما خرجت مفرقة النفس شاردة الخواطر ، مضطربة بين الثورة والهيام ، فلم أكد أستقر وأستريح من جهد الرياضة حتى استأنفت النشاط وخرجت فزرت بعض الصديقات وأخذت معهن في ألوان من الحدِيث مختلفة ، ولكنى كنت أحس دائماً أن لى نفسين إحداهما تلقى الصديقات وتحدث إليهن وتسمع منهن ، والأخرى مقيمة في أعماق الضمير ظاهرة غير مستخفية ، ناطقة غير صامتة ، تبحث وتستقصي وتسال وتلح في السؤال ، وتهيم وتشقى بهيام . وما أظن إن اتصل الأمر على هذا النحو إلا أنه سيظهر لأسرتى ، وستنكر أى بعض سيرتى ، وسأضيق بهذا الإنكار وبما سيتبعه من السؤال .

ما أشد حاجتى إلى رحلة قصيرة تخرجنى من هذه البيئة وتصرفنى

عن هذه الخواطر . ولكن هل إلى الرحلة من سبيل ؟ إن قوانين الأسرة صارمة صلبة لا مرونة فيها ولا لين . الرحلة ميسرة لنا في الصيف ، نصعد في الجبل إلى أرفع من هذه القرية التي نعيش فيها ، أو ننحدر إلى المدينة أو إلى ما يليها من شواطئ ، أو نبعد في السفر فنهبط إلى ساحل البحر ، فنغير الجو والإقليم تغييراً تاماً . وقد كانت الأعوام التي سبقت الحرب تتيح لنا الإمعان في السفر وتجاوز حدود فرنسا من هذه الناحية أو تلك ، وربما سمحت لنا بركوب البحر وعبره أيضاً .

الرحلة ميسرة في الصيف لأنها تتيح لنا الاستمتاع بحقنا من الراحة . والرحلة ممكنة في الشتاء على أن تكون قصيرة ، وعلى أن تكون قريبة ، وعلى أن تدعو إليها الظروف ، فقد نزور هذا الفرع أو ذاك من فروع الأسرة التي أراد حسن الحظ ألا تجتمع في قرية واحدة أو في إقليم واحد ، وإن تقاربت مواطنها وسهل تزاورها . الرحلة ميسرة في الصيف ممكنة في الشتاء ولكنها محظورة في غيرهما من فصول السنة إلا أن تدعو إليها ظروف القاهرة . ومهما تكن رغبتى في الرحلة فأنى أؤثر البقاء على أن أرحل مستجيبة لبعض هذه الظروف . وما أدرى بعد ذلك ، أواجدة أنا في نفسى الشجاعة على السفر إن تهيأت لى أسبابه ؟ فليس من اليسير ولا من الأشياء التي أستطيع احتمالها ترك هذين الشيخين الحزوين ، وهذه الأم البائسة ذات القلب الكسير

والبال الكاسف والحياة التي أظلمت من جميع جوانبها ، ولم يبق فيها إلا هذا الضوء الضئيل الذي يأتي من أخى ومنى فيعينها ويعين زوجها على الصبر والاحتمال .

لا ، ليس إلى الرحلة من سبيل ، وما ينبغي التفكير فيها فضلاً عن التحدث بها وحسبي أن يوماً سيأتى بعد وقت طويل أو قصير أرحل فيه عن هذه الدار وأناى فيه عن هذين الشيخين ، وأن هذا مصير أخى ، وأن أمر هذين الأبوين صائر إلى هذه الوحدة المنكرة التي لا أفكر فيها إلا امتلأت لها نفسى حزناً ، وامتلاً منها قلبي رعباً . وحسبي أن هذين الأبوين الكريمين يهيئان لأنفسهما هذه الوحدة ، ويعدان لأنفسهما هذه العزلة ، يؤديان بذلك ما يريانه واجباً عليهما وحقاً لنا ، لا يفكران فيما هما أهل له من عطف ، ولا يذكران ما قد يحتاجان إليه من معونة . إنهما يفكران فى ذلك ويجدان ، هما الآن يفكران فى خطبتي وزواجي ، وسيفكران غداً إن لم يكونا قد فكرا ، فى خطبة أخى وزواجه ، وهل لهذا كله نتيجة بالقياس إليهما إلا الوحدة المظلمة والعزلة المؤلمة والحياة القائمة التي يحياها أصحابها وقد يشسوا من ماض لا سبيل إلى عودته وانتظروا مستقبلاً أيسر ما يقال فيه أنه الضعف والعجز والفناء والموت ؟

كلا ، ما ينبغي لى أن أفكر فى الرحلة ، بل ما ينبغي لى أن أفكر فى فراق هذين الشيخين قبل أن يكون لى من هذا الفراق بد ،

والبال الكاسف والحياة التي أظلمت من جميع جوانبها ، ولم يبق فيها إلا هذا الضوء الضئيل الذي يأتي من أخى ومنى فيعينها ويعين زوجها على الصبر والاحتمال .

لا ، ليس إلى الرحلة من سبيل ، وما ينبغي التفكير فيها فضلاً عن التحدث بها وحسبى أن يوماً سيأتى بعد وقت طويل أو قصير أرحل فيه عن هذه الدار وأناى فيه عن هذين الشيخين ، وأن هذا مصير أخى ، وأن أمر هذين الأبوين صائر إلى هذه الوحدة المنكرة التي لا أفكر فيها إلا ابتلاؤا لها نفسى حزناً ، وامتلأ منها قلبى رعباً . وحسبى أن هذين الأبوين الكريمين يهثان لأنفسهما هذه الوحدة ، ويعدان لأنفسهما هذه العزلة ، يؤديان بذلك ما يريانه واجباً عليهما وحقاً لنا ، لا يفكران فيما هما أهل له من عطف ، ولا يذكران ما قد يحتاجان إليه من معونة . إنهما يفكران فى ذلك ويجدان ، هما الآن يفكران فى خطبتي وزواجى ، وسيفكران غداً إن لم يكونا قد فكرا ، فى خطبة أخى وزواجه ، وهل لهذا كله نتيجة بالقياس إليهما إلا الوحدة المظلمة والعزلة المؤلمة والحياة القائمة التي يحياها أصحابها وقد يشوا من ماض لا سبيل إلى عودته وانتظروا مستقبلاً أيسر ما يقال فيه أنه الضعف والعجز والفناء والموت ؟

كلا ، ما ينبغي لى أن أفكر فى الرحلة ، بل ما ينبغي لى أن أفكر فى فراق هذين الشيخين قبل أن يكون لى من هذا الفراق بد ،

بل ما ينبغي لى أن أضيق بشيء أو أن أظهر لهما انى ضيقة بشيء ،
ولأنما أيسر حقهما علىّ ألا يريا منى إلا وجهاً مشرقاً ، وثغراً
باسماً ، ونفساً راضية ، وقلباً مطمئناً يملؤه الحب والوفاء ويفيض
منه العطف والحنان .

وإنى لقادرة على ذلك ، وإنى لراغبة فيه حريصة عليه ، لولا
هذا الخاطر الثقيل الملح الغامض الذى أثاره فى نفسى أمر الخطبة
وحديث الزواج .

أعنى ، أيها الدفتر العزيز ، على أن أكون جلدة حازمة ضابطة
لأمرى ، مالكة لنفسى مسيطرة على عواطفى وخواطرى ، محتمة لهذا
الهيام الغريب الذى أحبه وأبغضه ، والذى أقدم عليه وأحجم عنه .
أعنى ، أيها الدفتر العزيز ، فإنى فى حاجة إلى معونتك لأقف
من نفسى ومن أبوى هذا الموقف الغريب ، الذى لا أكاد أتصوره
حتى أرتاع له ، وأضحك منه ، فهو مروع حقاً ومضحك حقاً .
أتريد أن أفضى إليك بخبيثة نفسى ودخيلة ضميرى ؟ إذن فأصغ إلىّ ،
واستمع لى ، ولا تضحك منى ، إنى عاشقة قد تيمها العشق ، ولكنى
عاشقة لشخص مجهول لا أعرف من أمره شيئاً . هو هذا الذى يفكر
أبواى فى أن يكون لى زوجاً .

٨

إنك تسرفين في السهر يا ابنتي ، وأخشى أن يؤثر ذلك في صحتك ، بل أكاد ألمح آثاره في أري لولك حائلا ووجهك شاحبا ، وأحس منك فتورا لم أتعوده ولا أحب أن أحسه .

قالت لي أمي ذلك بعد أن منحتني قبلة الصباح ، ثم وضعت يديها على كتفي ، وحدقت في وجهي فأطالت التحديق ، ثم ضمتني إليها ووضعت على خديّ قبليتين ، لم تكد تفرغ منهما حتى انحدرت من عينيها دموع غزار ، وحتى خنقت العبرة صوتها فولت منصرفة ومضت إلى غرفتها لا تلوى على شيء ، وكان هذا كله مفاجئا لم أكن أتوقعه ، وكان هذا كله سريعا لم يتح لي أن أفكر فيه . دفعتها إليه الغريزة ، ودفعها إليه ما يملأ حياتها من حزن وإشفاق ، ولم أكن أقل منها تأثرا بالغريزة ، ففضيت في أثرها مسرعة حتى انتهيت إلى غرفتها ، فإذا هي جاثية أمام الصليب صامتة مغرقة في الصمت ، لا ينطلق لسانها بالصلاة ولا يندفع صوتها بالبكاء ، والدموع تنحدر من عينيها صامتة أيضا ، وقد أظلمها الحزن الهادئ الوديع بجناحيه ، فظهرت عليها سكينه مؤثرة تملأ القلب حزنا وأسى ، وتشيع فيه رهبة وجلالا . وقد قمت منها غير بعيد ، ولبثت أرمقها بنظرات ما أرى

إلا أنها كانت تحمل بعض ما كان يفيض به قلبي من حب وحنان ، وكأنها أحست وقع هذه النظرات على شخصها فحولت عن الصليب في أناة وهتواء ثم نهضت متناقلة وهي تهدي إلى ابتسامة حلوة ، يبلها الدمع ثم سعت إلى حتى بلغت مكاني فضممتني إليها مرة أخرى وقبلتني متمالكة متماسكة . ثم أخذت بيدي ومضت تسعى حتى انتهت إلى كرسي طويل فجلست وأجلستني إلى جانبها ، وطوقت عنق بذراعها ، وجعلت تنظر إلى فتطيل النظر ولا تقول شيئاً . وما أشك في أن نظرها هذا الصامت الطويل إنما كان صراعاً بين حبها لي وحزنها هذا المتصل . وكانت تريد أن ترد الحزن إلى مقره من أعماق نفسها ، وأن تقيم في المكان الظاهر من قلبها حبها لي وبرها بي وعطفها علي . وقد أتيح لها ذلك بعد لحظة فجعلت تلاطفني بيدها تمسح بها خدي مرة وتجرى أصابعها في شعري مرة أخرى . وجعل نظرها إلى يتصل كما كان ولكنه يهدأ ويرق ويلين حتى صار حناناً وعطفاً ، ولم يتح للسانها مع ذلك أن ينطلق بشيء ، ولم يتح لشفتيها مع ذلك أن تنفرجا عن شيء .

والغريب أن لساني أنا أيضاً قد ظل معقوداً ، وأن شفتي أنا أيضاً قد ظلتا مقفلتين ، وقد كنت مع ذلك أدركت في نفسي كلاماً أريد أن أقوله لها ، وقدركت في خاطري ألفاظاً حلوة أريد أن أرسلها إلى نفسها النائرة وقلبها المكتئب ، ولكنني أنسيت كل شيء ولم أجد

في نفسي شيئاً ، ولم أستطع أن أدير لساني بحرف . وإذا أنا ألاطفها كما تلاطفتني وأداعب خدها وشعرها كما تداعب خدي وشعري وأقبلها بين حين وحين .

وما أدرى أطال مجلسنا هذا أم قصر ، ولكني أعلم أني كنت أسرع منها إلى النشاط فقد نهضت خفيفة رشيقة فاستقبلتها ثم انحنيت عليها فأخذت كتفيها فهزرتهما هزاً عنيفاً رفيقاً معاً وأنا أقول لها في صوت حزين يتكلف الفرح وبوجه عابس يتصنع الابتسام : « هلم هلم يا أماه ما هذه القصة الصامته التي أخذنا في تمثيلها منذ اليوم ؟ أي شيء طرأ وأي حادث عرض ؟ ألم أنك عن هذا البكاء ؟ ألم أحرم عليك هذا الإغراق في الحزن ؟ ما أجمل هذه التحية التي استقبلتني بها ! أهلكذا تلقى الأمهات بناتهن حين يشرق لمن وجه النهار ؟ هلم هلم يا أماه إنك خليقة أن أغضب عليك وأن أعاقبك عقاباً شديداً فأعيس لك النهار كله وأعرض عن حديثك إلى الغد . هلم هلم ما كنت أدرى أن السن تنقدم بك فردك إلى سيرة الصبية والأطفال » .

أقول لها ذلك متكلفة أول الأمر . ولكن التكلف يزول شيئاً فشيئاً ، وإذا أنا أرائني جادة ويخيل إليّ أني قد صرت لها أمّاً وأنها قد صارت لي بنتاً ناشئة ، وأنني أؤدبها وأهذبها وأخذها في سيرتها بالرشد والصواب ، وإذا أنا أنهضها فلا تمتنع عليّ ، وإنما تستجيب لي فتنهض

غير متناقلة ، وإذا أنا أطوق خصرها بذراعى وأسعى معها رفيقة فتسعى مطيعة مدعنة وعلى وجهها إشراق كئيب ، وعلى ثغرها ابتسام حزين ، حتى إذا خرجنا من غرفتها وأغلقت الباب من دوننا ، قلت لها فى لهجة العاتبة لقد أخرت ساعة إفطاري ألا تستحين ؟ إنك قد أفطرت من غير شك فلا عليك ألا يفطر الناس ، ومع ذلك فإنى لن أفطر الآن عقاباً لك !

فتلفت إلى وthem أن تتكلم ، تريد من غير شك أن تحرضنى على الإفطار ، ولكنى أريحها من الكلام قائلة لقد صرفت نفسى عن الرغبة فى الطعام والشراب ، ولا بد لى من لحظات قصار أتسم فيها الهواء وأطوف فى أثنائها بالحديقة ، وأحس فى أثنائها ما يملأ الحديقة من زهر وشجر ، وأتلقى تحية الزهر والشجر أيضاً ، وستشاهدن هذا كله وسترافقينى فى هذه الرياضة ، فلها ترد إليك بعض الحكمة ولعلك تثوبين معها إلى الرشء ولعلها تهينك لإفطار جديد فلن أفطر وحدى هذا اليوم ولا بد من أن تحتلى هذه الخطيئة التى لا أغتفرها .

أقول لما هذا كله فى صوت يضطرب بين الشدة والهدوء ، وبين التكلف والجد ، وهى تسمع لى مدعنة أول الأمر ، ثم مقبلة على مبتسمة لى وما هى إلا لحظات حتى نكون فى الحديقة مطوفتين ، أنا أقف بها من حين إلى حين عند هذه الجماعة أو تلك من النجوم والأزهار . متحدثة إليها ألواناً من الحديث عن هذه النجوم والأزهار ،

داعية البستاني بين وقت ووقت ، أستفسر منه مرة ، وألومه طوراً ،
وأناه طوراً ، وما أزال على ذلك حتى أرد إلى قلبها بعض الأمن ،
وإلى نفسها بعض الهدوء ، وإذا هي تشاركني في بعض الحديث
وتوافقني في هذه الملاحظة وتخالقني في تلك ، حتى إذا بلغت من
ذلك كله مأربى رجعت بها إلى غرفة المائدة ، فاضطرت متكلفة ،
وأكرهتها على أن تشرب قدحاً من القهوة ، ثم أمضيت معها الضحى
كله أجاذبها أطراف الحديث في شؤون مختلفة متباينة ، لا تتصل بي
ولا بأخي ، ولا بالفقيدين الشهيدين ، وإنما تتصل بأهون الأشياء
وأيسرها وأجدرها أن ينفق فيه الوقت ، ويستعان به على احتمال الحزن
والألم :

وكذلك أنفقنا صباح اليوم حليفتين على دفع هذا الضيف البغيض
الذى أراد أن يغزو دارنا وأن يفسد أمرنا وأن يردنا إلى شر ما كنا .
ولم أفارق أى إلا حين تقدم المساء ، وبعد أن فرغنا من غداثنا ومن
هذا الحديث الذى تعودنا أن نأخذ فيه بعد الغداء . ولم أتركها وحيدة
ولأنما أوصيت بها إلى أبى ونبهته في رفق إلى أنها لم تكن حكيمة ولا رشيدة
صباح اليوم ، ومن يدرى لعله هو أيضاً لم يكن حكيماً ولا رشيداً ،
ولعله لم يكن أقل منها حزناً ، ولكن الرجال يحسنون الصبر ويتقنون
التجملد ، ويبلغون من كظم الحزن وإخفاء العواطف ما لا يبلغ النساء .
ونخلوت إلى نفسى بعد ذلك فجعلت أستعرض ما كان من الأمر

وألتبس له ، كما تعودت ، العلل والأسباب ، ولكنى لم أستطع أن أرد هذه الأزمة الطارئة المفاجئة إلى سبب معقول أستريح إليه . وكيف عرفت أى أنى أسرف فى السهر ؟ إنها إذن تلاحظنى أكثر مما كنت أظن . لقد كنت أحسب أنى كنت آمنة على خلوقى إذا افترقنا حين يتقدم الليل ، وأن كلامنا يأوى إلى غرفته فيفرغ لنفسه من كل إنسان ، ومن كل شئ وتوجل الصلات بينه وبين الناس والأشياء إلى غد ، ويستمتع بحريته الكاملة ساعة قبل أن يغلبه النوم . كنت أظن ذلك ، ولكنى كنت واهمة ، فهذه أى تلاحظنى بعد أن نفرق ، وتعرف أنى أسرف فى السهر ، وتلومنى فى ذلك لومًا رقيقًا .

وليس من شك فى أنها تلاحظنى منذ أيام ، فهى لم تقل لى لقد أسرفت فى السهر أمس أو أول من أمس ، وإنما قالت لى إنك تسرفين فى السهر . إنها لا تعتمد هذه الملاحظة فليس هذا من خلقها ، ولكن المسكينة مؤرقة دائماً تسرف فى السهر عن اضطراب ، لا عن عمد ، وما أكثر ما يضطرها الأرق إلى النهوض من سريرها والاضطراب فى غرفتها والوقوف إلى النافذة تستنشق الهواء وتنظر إلى السماء ولعلها تلتبس نفس هذا أو ذاك من فقيدى الشهداء ، متحيرة بين هذه الكائنات الضئيلة التى ترسلها النجوم إلى الأرض . وأكبر الظن أنها لاحظت الضوء ينبعث من نافذتى ، فصبرت على ذلك مرة ومرة ، فلما تكررت الملاحظة وطال الأمر لم تطلق على ذلك صبراً فدفعها

الإشفاق إلى هذا التنبيه . والغريب أن لنا فئتي أبواباً ، وأن من دونها أستاراً وأن هذه الأستار إن أسدلت وتلك الأبواب إن أغلقت خليقة أن تحجب الضوء وتمنعه من النفوذ .

ولكني لا أحسن إليك الحلوة أيها الدفتر العزيز ، ولا أحتاط حين أناجيك وأفضي إليك بأسرار الضمير ، على أني لم أفهم كيف انتهى إشفاق أمي على من الإسراف في السهر بنفسها إلى هذه الأزمة الحادة ، فقد كان من أيسر الأشياء أن تدعوني إلى ما تحب ، وتنهاني عما تكره ، دون أن يضطرب قلبها هذا الاضطراب العنيف . أترى حزنها يعظم لها الهين من الأمر ويكبر لها الصغير من الشأن ويخيفها من أقل الأشياء دعاء للخوف ؟ أترى فقدتها لابنيها يملأ قلبها حرصاً على استبقاء ابنيها الآخرين ، فهي تشفق عليهما من أيسر الأمر وأهونه ؟ أم ترى أن في الأمر شيئاً آخر وأنها لم تكذب تتحدث إلى وتضمني إليها حتى ثارت في نفسها عواطف وعرضت لها شؤون وتصورات المستقبل القريب أو البعيد وأشفقت من فراق قريب أو بعيد فثارت العاصفة وكانت الأزمة ؟

وإذن فما زلنا في هذا السر الغامض والحديث الملتوى والتفكير الخفي في الخطبة والزواج .

ولم تطل خلوقي إلى نفسي ، ولم يطل تفكيري في هذا الأمر . فهذا أخي قد أقبل على غير عادة وجعل يخلط الهزل بالجد ، ثم

أظهر الرغبة في أن يخرج معى للتروض وقد أنكرت عليه ذلك فلم
يحفل بالإنكار وامتنعت عليه فلم يأبه للامتناع ، وظفر في آخر
الأمر بما أراد فأخرجنى من الغرفة ثم من الدار وجعل يهيم بى فى الغابات
هابطاً ومصعداً ومحدثاً أفانين من اللعب والمرح والجنون ، ولم يردنى
إلى الدار إلا حين آن وقت العشاء .

لقد سلانى حزن أمى عن نفسى صباح اليوم ، وسلانى مرح أخى
عن نفسى مساء اليوم ، وكنت أظن أنى سأستقبل هذه الليلة بما
كان من حديث الصباح والمساء ولكن أبى أراد أن يشغلنى بشىء غير
هذا الحديث .

لقد أقبل علىّ قبل أن نفرغ من العشاء وقال فى صوت هادئ
رزين حزين : إن أملك تشفق من إسرافك فى القراءة . فإذا تقرئين
إذن ؟ قال أخى : إن أمنا لتشفق من أيسر الأشياء ، وما أرى إلا
أن مادلين غارقة فى قصصها السخيف تنصرف إليه عن عمل النهار
وراحة الليل ، فلا تلمها ولمّ هؤلاء الكتاب الذين يفسدون على
الناس حياتهم بما ينشرون من هذا القصص الذى لا رأس له
ولا ذيل .

ولولا أنى ملكت نفسى لوثبت إلى أخى فقبلته ، فقد فتح لى
باب المعاذير على غير علم منه ولا إرادة ، وأتاح لى أن أجيب بأن
ما يقوله حق . فأنا عاكفة هذه الأيام على قراءة الكاتب الإنجليزى

ميلز . قال أخى : وليتك تحسنين القراءة إنما تتبعين القصة وتعرضين عما فيها من وصف وفن . قلت : ما أنت وذاك ، إنك لا تعرف كيف أقرأ ، وأنا على كل حال خير منك فأنت لا تقرأ شيئاً .

وكننت أريد أن يشتد الحسام بين أخى وبينى فأصرف أبى عن هذا الحديث الذى أخذ فيه ، ولكنه قال فى صوته الحزين الرزين : ستختصمان حين تخلوان إلى أنفسكما ، فأما الآن فإنى أحب لك يا ابنتى أن تقرأ فى النهار وتستريحى فى الليل ، وإذا لم تحصى على الراحة لنفسك فاحصى عليها لتطمئن أملك وتستريح . وهممت أن أجيب ، ولكن أبى مضى فى الحديث قائلاً : « ليس من الخير أن تغرقى فى القراءة على هذا النحو ، وما أشفق على الشباب من شيء كما أشفق عليه من هذا العكوف المتصل على الكتب ؛ فإن العقل ليس كل شيء ، وقد يكون للجسم بعض الحق فى أن يعيش . وأكبر الظن يا ابنتى أنك ضيقة بالحياة فى هذه القرية ذات الآفاق المحدودة وفى أسرتنا هذه التى فقدت ما كانت تألف من فرح وهجة . وسنتك فى حاجة إلى الفرح والإبتهاج » . وأهم أن أجيب ولكنه يمضى فى الحديث قائلاً : « ولعل من الخير أن تغيرى من حياتك بعض الشيء وأن تتركى هذه البيئة الشاحبة الحزينة ، وقتاً ما ، وتعيشى فى بيئة أخرى فيها ترفيه على النفس ، وتسلية عن الهم وتحقيق لما ينبغى من نشاط . فكرى فى ذلك ، وسنفكر ، ولكن

عدينى منذ الليلة بأنك ستقتصدين فى القراءة وستريحين أملك من هذا الخوف الجديد» قلت وقد اضطربت نفسى أشد الاضطراب وظهرت آيات الارتباك فى وجهى وصوتى: «لك ما تشاء يا أبى، ائذن لى، ولتأذن لى أمى، فى أن أمضى الليلة فى القراءة لأتم قصة بدأتها أمس، وما أراى أستطيع أن أصبر عنها إلى غد». قالت أمى: «الليلة فحسب» قلت: نعم. قال أخى: «الأمر أيسر من هذا، إن عادت إلى السهر قطعنا عنها ضوء الكهرباء». وتضاحكنا فى حزن!

ثم افترقنا حين تقدم الليل وخلوت إليك أيها الدفتر العزيز، فلم أتم قصة بدأتها وإنما حدثتك بما كان من أدرى. وها أنا هذه حائرة، لا أدرى كيف تكون خلوقى إليك منذ الغد، وحائرة أيضاً لا أدرى كيف خطر لأبى أن ينفيى عن هذه البيئة الحزينة الشاحبة إلى بيئة أخرى لها حظ من فرح وابتهاج. وحائرة أيضاً لا أدرى أستعجب إلى ما أراد عليه من الرحيل أم أظهر الخلاف والامتناع؟ ولكن الشيء الذى لا أتردد فيه هو أنى سأخلو إليك! وسأبثك حديثى فى النهار أو فى الليل، وفى المقام أو فى الرحيل.

نظرت إلى شخصه فامتلاً به قلبي ، وسمعت صوته ففتنت به نفسي ، وراقصنه ساعة فصرفت إليه عن كل شيء .
نعم عن كل شيء حتى عنك أنت أيها الدفتر العزيز ، فقد مضت أيام طوال لم أثبتك فيها سرى ولم أفض إليك فيها بحديث نفسي ، وكنت قد عاهدتك على أن أجدد الخلوة إليك في الليل أو في النهار وفي المقام أو في الرحيل ، ولكني لم أفعل كما ترى . وما أدري أنكرت غيبتى عنك وضقت بإبطائي عن لقائك ، ولكن الذي أعلمه أنني صرفت عنك كارهة في اليوم الذي تلا آخر ما أفضيت به إليك من حديث .

شغلت بأمر هذه الرحلة التي أصبحت فرأيتها قد دبرت لي تدبيراً ، وفرضت علي فرضاً ، ولم يبق لي إلا أن أهيبها لها نفسي وأخذ في أسبابها ولم يمد لي الوقت للتهيؤ والأخذ في الأسباب ، وإنما دعيت إلى ذلك أول النهار ، وانحدرت بي السيارة إلى المدينة في آخره وقضيت ما بين ذلك في إعداد ما لم يكن من إعداده بد لغية قد تتصل أسابيع .

وانتهيت إلى المدينة حين تقدم الليل شيئاً ، فكان لقاء عمي

وأبنائها ، وكان العشاء ، وكان السمر المتصل والأحاديث المختلفة ، ثم آويت إلى غرفتي متعبة متهالكة مؤثرة أن أسلم نفسي إلى النوم على أن أخلو إليك لأبتك السر وأمنك على نجوى الضمير . ثم أفيق من غد فإذا أبناء عمتي قد أقبلوا عليّ وكأنما كلفوا أنفسهم أو كلفهم غيرهم أن يحولوا بيني وبين الفراغ لنفسى والخلوة إليها ، فهم لا يفارقونى وجه النهار وهم لا يكفون عن التحدث إلى بألوان الحديث ، وإظهارى على ما تعود أمثالهم أن يظهروا عليه مثلى من شؤون دارهم ومن شؤونهم الخاصة حتى إذا كان الغداء ، ونحيل إلى أنى سأخلو بعده إلى نفسى لأستريح ولأتحدث إليك شيئاً حيل بينى وبين هذا أيضاً . فقد هيا هؤلاء الشياطين رياضة تستغرق ما بقى من النهار ؛ رياضة فى البحيرة نظوف أثناءها بهذه الشواطىء الجميلة الهادئة المطمئنة التى تبعث فى النفوس هدوءاً واطمئناناً ، الباسمة الحزينة التى تبعث فى النفس حزناً وإبتسامة ، والتى تدفع إلى كثير من التفكير الغريب المؤثر الذى لا يستبد به العقل ، وإنما يشترك فيه العقل والحس والشعور . والذى ينتهى بصاحبه إلى أن يمتزج بهذه البيئة الخلوة الهادئة ، ويكاد يفنى فيها ويحيى فى نفسه رغبات هادئة ولكنها ملحة غامضة ، ولكنها مع ذلك تكاد تنم عن نفسها لثنايا القلب وأعماق الضمير .

رياضة فى هذه البحيرة ، وتطويف بهذه الشواطىء ، وإلمام ببعضها ثم تصعيد هادئ فى هذه الرنى التى ترتفع فى رفق وكأنها

مبسوطة ليمس لها حظ من الارتفاع ، ثم انحدار مرة إلى هذه الغابة عن يمين ، وانحراف مرة أخرى إلى هذه الغابة عن شمال ، واضطجاع هنا على هذا العشب الكثيف ، وتنافس هناك في اقتطاف هذه الأزهار الصغار الدقاق وإلى اجتناء هذه الأثمار الوحشية الحلوة التي تمتلئ بها الغابات . ثم نداء فجأى إلى الإسراع بالعودة ، فقد أقبل الليل ، ولا بد من أن نتهياً للعشاء فإننا لن نجلس إلى المائدة وحدنا ولكن أسرة فلان مدعوة إلى العشاء هذا المساء ، وما كنت أعرف من أمر هذه الدعوة شيئاً ، وما كنت أفكر إلا في أننا سنقبل على طعامنا كما فعلنا أمس وسنسمر طرفاً من الليل نتجاذب فيه الحديث ، وقد نختلف فيه إلى البيانو ، وقد نستمع فيه لبعض الغناء تدعى إليه هذه أو تلك من بنات عمى ، فتقبل عليه كارهة أو متكلفة للكراهة ، وكنت أفكر فيما بينى وبين نفسى أن القوم سيدعونى إلى العزف وسيلحون علىّ في الغناء ، وكنت أكره ذلك وأضيق به ، ولكننى كنت أذعن له كما أذعن للقضاء المحتوم . فهذه قوانين الأسرة لا سبيل إلى الخلاف عنها أو الامتناع عليها .

وكنت أدير في نفسى لحنين أو ثلاثة من ألحان شوبان لأوقعها على البيانو ، وأغنيتين أو ثلاثاً من أغاني فوريه لأغنيها إن دعيت إلى ذلك .

وكنت أستذكر هذا كله في أثناء الرياضة والحديث ، وكنت

حريصة أشد الحرص على ألا يظهر منى ضعف أو يبدو منى تنسیر ،
فقد لا ينبغي أن يتحدث عنى بنات عمى بأنى قد نسيت العزف أو
قصرت فى الغناء . وإن أوى لحريصة أشد الحرص على أن أكون سباقه
فى هذين اللونين من ألوان الفن ، وعلى أن يسجل السبق لى حين أكون
فى هذا الفرع من فروع أسرتنا خاصة .

كنت أفكر فى هذا كله ، ولكن الأمور جرت على غير ما كنت
أقدر ، فقد علمتُ أن القوم يولون وأنهم قد دعوا إلى وليمتهم منذ
أيام وأنهم تعجلوا هبوطى إليهم من قريتى تلك المرتفعة الشاهقة لأشهد
وليمتهم هذه . ثم علمت فاشتد ضيقى بما علمت ، أن الأمر لن
يقتصر على العشاء والسمر ولكنه يتجاوز ذلك إلى الرقص ، وإلى
الرقص الذى لا يشترك فيه المدعوون إلى العشاء وحدهم وإنما سيشارك
فيه معهم قوم آخرون دعوا إلى السهرة .

وكان هذا كله قد دبر فأحكم تدبيره وقد أخفى علىّ وكنم عنى
ولم يرفع لى عنه الحجاب إلا قبل العشاء بساعة وبعض ساعة ، ولو قد
علمت ذلك لما استجبت إلى الدعوة ، ولما انحدرت من القرية ،
ولامتنعت على أبوىّ حين ألحّا علىّ فى الرحلة ، فقد انقطع عهدى ،
منذ الحرب وما تركت فينا من الأخران . بهذه الحياة الفرحة المرحّة ،
وبهذا اللون من ألوان العبث البرى . وما كنت أشك فى أنى سأعود
إلى ذلك يوماً ما فلا بد للأحياء من أن يحتملوا الحياة ويتلقوا ما فيها

من الخير والشر . ولكنى كنت أقدر أنى سأعود إلى هذا كله شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا لا على هذا النحو المفاجيء الذى يأخذنى كأنه السيل الذى لا سبيل إلى التحول عنه أو التخلص منه .

ومهما يكن من شىء فقد وجدتني مكرهة على ما لا أحب ، وما أشد ما ضحك منى أبناء عمى حين رأوا ما ظهر على وجهى من ضيق وسخط ومن اضطراب وارتياب ، وما أشد ما سخروا منى فى أثناء العودة ، حتى إذا انتهينا إلى الدار تفرقوا عني ومضوا يصلحون من شؤونهم وينتهيئون لاستقبالهم . وخلوت أنا إلى نفسي فى غرفتي لأصلح من شأنى . وأتيت للاستقبال ، ولكنى رأيتني أغرق فى بكاء عميق صامت لم أحاول تفسيره ولم أحاول الخروج منه ، وإنما وجدت فيه راحة ووجدت فيه لذة وأحسست فيه وفاء ، وكنت خليقة أن أمضى فيه لولا أن يطرق باب الغرفة طرقًا خفيًا ، ثم يفتح الباب قبل أن آذن بالدخول ، ثم تظهر عمى هادئة رزينة ، وقد أغلقت الباب من دونها وسعت إلى مطمئنة وهى تقول فى صوت خافت كأنما تتحدث إلى نفسها : « لم أخطئ التقدير إذن ! » ثم تدنو منى فتحنى إلى فتقبلنى ، ثم تنهضنى فتضمنى إليها ضمًّا رقيقًا ملؤه الحنان والحب ، وقد أخذت دموعها هى أيضًا تنحدر . وقد رجعت تقول لى فى صوت تخنقه العبرة : « لا بأس عليك يا ابنتى ! لقد كنت أقدر أنى سأراك فى هذه الحال ، ولقد كنت أشفق أن تمضى فى حزنك هذا حتى

بصرفك عما لا بد لك منه . هلم يا ابنتي إن الحياة لا بد من أن تحتمل ، وإن فيها الحزن وإن فيها الفرح ، إن فيها الوفاء للموتى ، وإن فيها الوفاء للأحياء . لم يكن بد يا ابنتي من أن نخرجك من هذا الحزن المتصل الذى ألح عليك أعواماً إلى ما ينبغى لشبابك من الحياة الباسمة المبتهجة ، إن اتصال الحزن قد يليق بالشيوخ الذين قضوا الآراب من حياتهم ، وقد ينبغى أن نهون عليهم الآلام ونعينهم على احتمال الخطوب حتى يخرجوا من هذه الحياة ، وقد ذاقوا من آلامها أقل ما يمكن أن يذاق ، ولكننا لا نطمع لهم فى السلو المطلق والعزاء الخالص ، فليس لهم إلى ذلك سبيل ، فأما أنت وأترابك من الشباب فإن لكم على الحياة حقاً يجب أن يودى إليكم فى هذا الطور من أطوار شبابكم وللحياة عليكم حقوقاً ستؤدونها حين تتقدم بكم السن ، انظرى إلى أبويك لقد نعما بالشباب وذاقا لذاته كلها ، واستمتعا بما فيه من فنون الترف وألوان الغبطة . وإني لأشاركهما يا ابنتي فى الحزن وأشفق عليهما منه ، وأود لو استطعت أن أحطّ عنهما بعض أثقاله ، ولكنى لم أطق ولن أطيع أن يتسلط الحزن على الشباب وتثقل عليهم وطأته ، فإن الشباب لم يخلقوا للحزن ، ومن الظلم أن يتعجلوا نصيبهم من مرارة الحياة .

هلم يا ابنتي خذى بحظك من النشاط لهذه الليلة التى لم تهياً إلا لك ، والتى يجب أن تظهرى فيها جميلة رائعة كأجمل ما كنت ،

وكأروع ما يمكن أن تكونى . يجب أن تكونى زينة المائدة ، وزينة المرقص ، ويجب أن يكون لك السبق والتفوق . هلم أصلحى من شأنك وسأرسل الخادم لتعينك على ما تحتاجين إلى المعونة فيه ، وسأعود لأراك قبل أن تهبطى إلى غرفة المائدة ، ويجب أن أرضى عن زيتك وإلا فستسألفين من أمرك كل شيء .

ثم تقبلنى وتنصرف ، ثم تعود بعد ساعة فتنظر إلى مقبلة مدبرة مستعرضة ، وترضى عن كل شيء إلا عن وجهى هذا الذى ينقصه الابتسام والإشراق . ولكنها مطمئنة إلى أن أبناء عمى سيفيضون عليه من ذلك ما ينقصه ، ثم يكون العشاء والسمر والرقص ، وقد كان بين المدعوين والسامرين والراقصين فتى نظرت إلى شخصه فامتلاً به قلبى وسمعت صوته ففتنت به نفسى ، وراقصته ساعة فصرفت إليه عن كل شيء . يا للعجب أكنت مهيأة لهذا الفتى ؟ أكان هذا الفتى مهياً لى ؟ أكانت خطبتى إلى هذا الفتى موضوع الحديث الغامض بين أبوى وأخى ؟ ما أدرى ، ولكن الفتى تردد على دار عمى أياماً ثم تسألنى عمى ذات صباح ما رأيك فى مكسيم جيرو ؟ فلا أدرى كيف أجيب ، وإنما أحس كأنما دى كله قد صعد إلى وجهى وأرى ابتسامة حلوة على ثغر عمى وأسمعها وهى تسعى إلى لتقبلنى لأنه قد صعد مع أبويه إلى القرية ليزور أبويك .

١٠

ما أشد حيائى منك ومن نفسى ، أيها الدفتر العزيز ، لست أدرى أين وجدت القوة التى مددت بها إليك يدي لأستخرجك من مستقرك ، الذى وجدت فيه وحيداً مهملًا منسياً أكثر من ثلاثة أعوام . ولست أدرى كيف فكرت فيك ، وأقبلت عليك بعد اطراحي لك وإعراضى عنك . ولست أدرى كيف أجِد القدرة على التحدث إليك الآن بعد أن وجدت القدرة على أن أطوى عنك الأحاديث طول هذه الأوقات المتصلة ، التى لا أقدر طولها ولا اتصالحا إلا الآن .

ما أشد حيائى منك ومن نفسى ، فإن إقبالى عليك الآن وإفضائى إليك ببعض الحديث لا يدلان إلا على أنى امرأة كسائر النساء فيها ضعفهن وقصورهن وغرورهن ، وإلا على أنى كائن من هذه الكائنات التى تزعم أنها مميزة بالثقافة والحضارة وما خصت به الحضارة من ترقية العقل وتصفية الطبع وتنقية الضمير ، ورفع النفوس عن الصغائر والدنيات ، وما هى فى حقيقة الأمر إلا كائنات وضعية قد اتخذت من الثقافة والحضارة طلاء يخدعها عن عيوبها الراسخة التى لا تكاد تفرق بينها وبين غيرها من أنواع الكائنات التى لاحظ لها من ثقافة أو حضارة أو تهذيب .

ما أشد حياثى منك ومن نفسى ، وما أشد اختلاط الأمر على !
 إني لا أريد أن استأنف الصلة بينك وبينى بعد أن انقطعت فطال
 انقطاعها ، فلا أجد السبيل إلى ذلك ميمرة ولا ممهدة فأتردد وأضطرب
 وأقدم بين يدي ويديك مقدمات ومعاذير لا تغنى عن الحق شيئاً ،
 ولا تزيد على أن تصور خجلى واستخذائى من هذه الحقيقة البشعة
 التى أواجهها فتنبض لها نفسى أشد الانقباض ويشمئز منها قلبى
 أعظم الاشمئزاز ، وأنظر مع ذلك كارهة فأطيل النظر وأفكر فيها
 مع ذلك راغمة فأطيل التفكير ، كأنى أجد فيما أحس من الألم لذة ،
 وفيما أشعر به من العذاب غبطة وسروراً ، وهى أنى خائنة غادرة
 أثرة عاجزة ، نسيتك حين كنت سعيدة ، وذكرتك حين أخذت تترأى
 لى أشباح الشقاء .

ليتك أنسيت كل ما أفضيت به إليك من الأحاديث فإنى قد
 أنسيتها أو كدت أنساها ولكنك قوى الذاكرة ، لا تنسى شيئاً ، شديد
 الأمانة لا تضيع شيئاً . ولقد نظرت فيك فرأيت صورة نفسى
 المضطربة التى ائتمنتك عليها منذ أعوام ، والى لحأت بها إليك ألتبس لها
 عندك العزاء والمعونة والتسلية . ورأيت ما قدمت إليك من الجهود
 المؤكدة على أن أكون وفيه لك مقيمة على الوفاء لما أهديت إليك من
 مودة ، ولما بادلتك من ثقة ، وإذا أنا أستخذى ، وإذا أنا أضيق بنفسى
 حتى أزدريها أشد الازدراء ، لقد وفيت لى فأعرضت عنك أكثر

من ثلاثة أعوام لا شيء إلا لأنى كنت مشغولة عنك بهذه السعادة التى غمرتني فصرفتني عن الحياة والأحياء ، وأنستني الناس والأشياء ، ووقفت قلبى وعقلى وحسى وشعورى وعواطفى وأهوائى على نفسى ، وعلى هذا الفتى الذى اختطفنى من الحياة ذات مساء ، وارتفع بى إلى جو بعيد فى السماء ، فعاش معى فيه تلك العيشة الراضية التى كانت خليقة أن تطهر نفسى من كل رجس وتبرئها من كل عيب ، وتنقيها من كل ضرر ، وتسبغ عليها من الفضائل ومكارم الأخلاق ما يترهبها عن الشر والنقص تنزيهاً . ولكنها لم تزد على أن نمت فيها هذه الغرائز للبغيضة ، غرائز الأثرة والخيانة والغدر والجحود . أليس صحيحاً إذن ما كان يقال من أن السعادة تطهر النفوس ، ومن أن الحب يذكى القلوب ؟ لقد كنت سعيدة ، فلم تثر فى السعادة إلا الرغبة فى الاستزادة منها ، ولقد كنت محبة فلم يثر فى الحب إلا الرغبة فى الاستئثار بمن كنت أهوى .

هون عليك أيها الدفتر العزيز ، إني لم أهملك وحدك ولم أختصك بالإعراض والنسيان ، ولكنى أهملت معك قومًا ما كنت أقدر فى يوم من الأيام أنى سأهملهم أو أقصر فى ذاتهم أو أسوؤهم بالجحود والعقوق . لقد احتفظت بمظاهر الحب والود بينى وبين أسرتى ، فزرتها واستترتها وأقمت معها الأيام والليالى ، واضطربت معها فى الحياة ونخضت معها فى ألوان الحديث ، ولكن الله وحده يعلم كم آلم الآن

حين أذكر ما أثرت في قلب أمي من ألم ، وما بعثت في نفسها من حزن ، وما أفضت على قلب أبي من هذا الشعور الواضح الكثيب ، بأن الأثرة قوام الحياة وبأن الأبناء يحيون لأنفسهم قبل أن يحيا لآبائهم ، وبأن السعادة تغرى بالقسوة وتدفع إلى الأثرة وتصرف القلوب في أكثر الأحيان عن البر والرحمة والحنان .

لم أسئ إلى أسرتي باللفظ ، ولم أسئ إليها بالعمل ، وما أراها تعتمد على بظاهرها من التقصير أو الإهمال ، ولكني مع ذلك أسأت إليها فأسرفت وألمتها فغلوت ! انصرفت عنها إلى نفسي ، وشغلت عنها بحياتي ، وأظهرت لها ذلك ماث من المرات في نبرات الصوت ، وفي حركات الجسم ، وفي لحظات الطرف ، وفي الإبطاء حين كان يحسن الإسراع ، وفي الإسراع حين كان يحسن الإبطاء ، وفي الفتور حين كان يجب النشاط ، وفي النشاط حين كانت تستحب الأناة . في هذه الأشياء اليسيرة التي تحسن وتلحظ ولكنها لا تكاد تثبت للتصوير والتعبير : هي أيسر من ذلك وأدق . هي تنفذ من أعماق النفوس إلى أعماق النفوس ، لا تكاد تمر على الألسنة ولا تكاد تستقر في العقول ، ولا في مظاهر الحس والشعور ، وهي من أجل ذلك مؤذية مهلكة شديدة الخطر على الحب والود ، وعلى ما بين الناس من صلات . هي أشبه شيء بهذه الجراثيم التي كانت تفتك بحياة الناس ، وتذيع فيهم ألوان الوباء والموت دون أن يحس لها الناس وجوداً ، أو يستطيعوا

منها احتياطاً . ولكن العلم قد كشف هذه الجرائم وأخذ يعلم الناس كيف يعرفونها ، وكيف يدرسونها وكيف يتقونها . فتي يستكشف العلم هذه الجرائم المعنوية التي تفسد الود ، وتفتك بالحب ، وتقطع أمتن ما يكون بين الناس من صلات ؟ لا يشتد وجدك على ولومك لي ، أيها الصديق العزيز ، فإنني لم أختصك بالخيانة ، ولم أؤثرك بالغدر ، وإنما أشركت معك في الخيانة والغدر قومًا آخرين لهم على أكثر مما لك على من الحق ، وهم بعد ذلك يشعرون أكثر مما تشعر . ويألمون أكثر مما تألم ، ويشقون بعقوق الأبناء أكثر مما تشق بتقصير الصديق .

لقد أحببت أبوي حباً ما كنت أعرف له حدًا ولا أمدًا ثم لم يمنعني ذلك من أن أقصر في ذاتهما ، ومن أن أؤذيهما بالإهمال والإعراض حين أتيت إلى السعادة واستأثر بي الحب ، ولقد عاهدتك على الود الدائم والوفاء المقيم ، ثم لم يمنعني ذلك من أن أعرض عنك وأنساك حين أتيت إلى السعادة واستأثر بي الحب ، أمن الحق إذ أن الحب يقاس بالحاجة ؟ وأنى إنما أحببت أبوي لأني كنت محتاجة إليهما ، متصلة بهما مدينة لهما بكل شيء ، فلما جاءني السعد من مصدر غير مصدرهما ، ولما أحسست الحاجة إلى شخص غيرهم تحول عنهما حبي وقصر في ذاتهما قلبي .

أفكنت محبة لك لأني كنت محتاجة إليك أبثك همي وأتخفف إليك مما كان يثقلني من الآلام والأحزان ؟ فلما صرفت عني الهمو

ورفعت عنى الآلام والأحزان لم أحنج إليك ، فلم أحفل بك ولم أفكر فيك ، وتركتك في مكانك هذا الذي استقررت فيه أكثر من ثلاثة أعوام ، يوشك أن يكون هذا حقاً ، وهو مؤلم وهو مخجل ، ولكن ، مالى لا أتشجع ومالى لا أواجه الحق ومالى لا أسجل على نفسى هذا الاعتراف بالخرى ؟ ما الذى حملنى على أن أفكر فيك وأخرجك من عزلتك الطويلة وأشق عليك بهذا الحديث الطويل الثقيل ؟ وما الذى حملنى على أن أكتب إلى أبوى منذ ساعة كتاباً طويلاً يفيض رقة وحباً وحناناً ويطلب إليهما إما أن يزورانى وإما أن يأذنوا بزيارتي لهما ؟ ما هذا الحنان المفاجئ الذى يدفع بى إلى أحضان أبوى ؟ وما هذا الوفاء المفاجئ الذى يدفع بى إلى استئناف ما بينك وبينى من صلات الود ؟ هو الأثرة ، والأثرة وحدها . هو الأثرة التى تظهر فى مظهر الضعف والعجز والحاجة إلى التسلية والعزاء . لقد صرفتنى عنك وعن أبوى الأثرة التى كانت تظهرها السعادة قوية طاغية باغية عنيفة ، ولقد ردتنى إليك وإلى أبوى الأثرة التى تظهرنى ضعيفة عاجزة يائسة أشد اليأس شقية أشد الشقاء .

لقد جرى القلم إذن بما لم أكن أحب أن يجرى به ، ولقد سجلت على نفسى إذن ما كنت أكره أن أسجله ، وما منعت نفسى من تسجيله منذ أسابيع ، لقد اعترفت بأنى ضعيفة ، وبأنى عاجزة وبأنى بائسة شقية .

ولقد آتراك أنت بهذا الاعتراف ، ولم أوتر أبوى منه بتيء
لأنك أقدر على احتمال الشكوى ، ولأنك أحفظ للمر وأملك للعزاء ،
ولم أحتج إليك في يوم من الأيام كما احتاج إليك الآن أيها الصديق ،
إليك وحدك أستطيع أن أشكو ، وعليك وحدك أستطيع أن أعول ،
سأصدقك لأنك تحتمل الصدق ، وسأكذب على أبوى لأن الصدق
يقتلها لو سمعاه .

أترى إليهما وقد ضحيا في تربيته وتنشئته بما ضحيا ، واحتملا
في سبيل سعادتي ما احتملا ، وسعدا حين ظنا أنهما قد أتاحا لي هذه
السعادة ، وتعزيا بذلك عن كثير من آلامهما ، بل تعزيا بذلك عن
هذه الآلام التي صبها عليهما ما كان من التفريق بيننا .
أترى إليهما وهما يألمان لهذا الفراق ويشقيان بعزلتهما ويستلذان
الآلم ويستعذبان الشقاء لأنهما يظناني سعيدة ؟

أترى إليهما لو عرفا أنني شقية بائسة ، وأنى قد استنفدت حظي
من السعادة في عام وبعض عام ، ثم أخذت هذه السعادة تكدر
شيئا فشيئا ويمارجهما البؤس قليلا قليلا ، ثم أخذت تضؤل وتهون
وتمحى ، حتى صارت حياتي كلها ألما وشقاء . أترى إليهما لو عرفا
هذا كله ؟ أثبتان له ؟ أيتعريان عنه ؟ أيصبران عليه ؟ كلاهما
أضعف من ذلك . لقد قسوت عليهما حين كنت سعيدة ، فلأقرن
لهما ولأرفقن بهما حين استقبلت الشقاء .

٦٣

أما أنت أيها الصديق العزيز فقد خلقت لغير هذا ، خلقت
لتحتمل قسوتي عليك بالشكاة والأنين ، حين أشقى وأبتئس . وقد
أخذت بحظك من قسوتي عليك أثناء السعادة والنعيم ، فأما حظك
من قسوتي عليك بالشكاة والأنين فسيصل ما اتصلت بك وبى
الحياة .

الآن نستطيع أن نتحدث في سر وإسماح ، أيها الصديق العزيز ، فقد عدنا إلى البيئة الهادئة الحلوة التي نشأت فيها مودتنا هادئة منذ أعوام ، حين تحطت إليك لأول مرة بما كان يساور نفسى من اضطراب غامض عميق ، فوجدت في الحديث إليك لذة وراحة وأمنًا ودعة .

عدنا إلى هذه الغرفة التي عرفت صباى ، وعرفت شبابى ، والتي رأتنى أنشأً وتغير وأستقبل الحياة وما فيها من لذة وألم ، والتي رأيتهما أنا ثابتة باقية ، وإن تغير ما يختلف عليها من الصور ، وما ينتظم فيها من الأداة والأثاث . عدنا إلى هذه الغرفة الصديقة التي نشأت بينها وبينى مودة قديمة ، لا أكاد أذكر متى ابتدأت ولا أكاد أعرف متى تنتهى ، ولا أشك فى أنى قد نسيت أشياء كثيرة ، أثناء الغيبة ، ولكنى لم أنسها ولم أنس مكانى أو أمكنتى منها ، وإنما كنت أرى نفسى فيها مضطربة وساكنة ، عاملة ومطمئنة إلى الكسل ، مفكرة وسترسة فى الأحلام ، مستيقظة ونائمة ، آوية إليها بما كان يملأ نفسى من الابتهاج حينًا والابتئاس حينًا آخر ، مرسله نفسى على سجيتها حين كانت تبتهج وتبتس فستمتعة ، بأقصى حظى من

حربتي في الفرح والحزن وفي الأمل والقنوط .
عدنا إلى هذه الغرفة التي تعارفنا فيها ، ولو أنك تمثلت لي الآن
شخصاً لضممتك إلىّ ولنحتك قبلة تصور فرحي بلقائك في هذا
المكان الأمين الوفي ، أشبه بهذه القبل التي أمنحها لأعضاء الأسرة
حين ألقاهم في هذه الدار ، بعد أن تطول الغيبة ويبعد الأمد ويشد
الشوق .

لست أدري ، أفهم عني ؟ بل لست أدري أفهم الناس عني
إن تحدثت إليهم بأنني أجد القبلة التي ألتقاهم من أمي وأبي ، وأضع
في القبلة التي أمنحها لأمي وأبي في هذه الدار حرارة لا أجدها ، ولا
أضعها فيما ألتقي منهما وما أمنحهما من القبل في مكان آخر ؟ إن
نفوسنا لغريبة الأطوار ، وإنها لشديدة التأثير بما يكتنفها من الظروف ،
وما يحيط بها من الزمان والمكان .

لقد حاولت منذ أيام أن أتحدث إليك بدخيلة نفسي ، وأن
أفضي إليك بهذه الآلام التي أخذت أحسها منذ حين ، وبهذا
الشقاء الذي أخذ يسعى إلىّ شيئاً فشيئاً ، فلم أجد من نفسي نشاطاً
لذلك ، ولا قدرة عليه ، وإنما جعلت أدور حوله ولا أتعمقه ، كأن
شيئاً كان يصدني عنه صديقاً ويصرفني عنه صرفاً . وكأن هذا الشيء
لم يكن إلا تلك البيئة التي كنا فيها ، فإنها لم تكن بيئة شكاة وتبسط
في الإفضاء بالسر والتخفيف من الحياء . كنت أنظر إلى غرفتي تلك

فأشعر أنى طارئة عليها لا ناشئة فيها ، فأستحي منها وأستحي مما فيها من الأدوات والأثاث أن تظهر على مكنون سرى أو دخيلة أمرى ، لأننى كنت أراها غريبة لم تظهر منى بعد بهذه الثقة التى تبجح بإذاعة السر والإفضاء بدخائل النفوس . ومع ذلك فقد ظهرت تلك الغرفة على كثير من أسرار نفسى ودخائل أمرى ، حين كنت أسعد بالحب ، وأنعم بتلك الحياة الرائعة فى غير تحفظ ولا تحرج ولا احتياط . لقد ائتمنتها على حبي وسعادتى وأظهرتها على فرجى ومرحى واغتباطى بالحياة . ولكنى لا أخفى عليك . كنت أحس شيئاً من الحياء دائماً ، مهما خرجت بى السعادة عن طور الوقار والأناة ، ولا أخفى عليك أنى لم أنس بعد ما أحسست من الألم اللاذع حين تمنيت شيئاً فلم أظفر به ولم أقدر عليه ، فقد كنت أحب أن أعرف زوجى وأواجه حبي فى هذه الغرفة التى عرفت صباى وشبابى ، التى ألفتنى وألفتها ، لا فى تلك الغرفة الغريبة من ذلك الفندق الغريب فى مدينة البندقية ، ولا فى تلك الغرفة الغريبة من تلك الدار الغريبة التى أقمت فيها مع زوجى فى المدينة ، ولكن ذلك لم يتح لى لأن تقاليد الناس وأوضاعهم تريد أن يتعارف الزوجان فى الغربة ، وأن تبدئ سعادة الحياة الزوجية فى أماكن ليست بينها وبينهما صلوات أو عهود . ولست أخفى عليك أيضاً أنى لم أستطع أن أبثك حزنى وألمى فى تلك الغرفة من دار زوجى ، لأنها قد عرفتنى سعيدة مغتبطة

فلم تعرف من نفسى إلا هذه الناحية ، ووجدت المشقة كل المشقة والجهد كل الجهد فى أن أظهرها من نفسى على الناحية الحزينة المبتسمة . بخلت بها على ذلك ، وبخلت بذلك عليها ، آثرتا بمظاهر السعادة والغبطة ، وآثرت نفسى بحقائق الحزن والشقاء .

ما أشد ما أخدع نفسى وأعبت بها !! وهل حياتنا إلا خداع وعبت ؟ لقد رأيتى تلك الغرفة سعيدة ناعمة البال ، ولكنها رأيتى مؤرقة مفرقة النفس ، رأيتى كثيرًا ورأت دموعى تنهل وسمعتنى أمانع صوتى أن يجهش بالبكاء ، ورأيتى أكظم الغيظ وأحبس الغضب فى نفسى أن ينفجر وأرد نفسى بالعنف عن الثورة العنيفة ، وأكرهها على الصبر والاحتمال ، وأكلف ثغرى الابتسام ووجهى الإشراق ، وإن قلبى ليدمى وإن فى نفسى لكلومًا لا تؤسى . وأرفع رأسى عزيزًا أيًّا ، وإن فى نفسى للذلة وانكسارًا . وأنا مع ذلك أزعم أنى قد أخفيت على تلك الغرفة أسرار حزنى وشقائى ، لا لشيء إلا لأنى لم أتحدث بهذه الأسرار جهرة ، ولم أصورها فى الألفاظ والجمل ، كأن تلك الغرفة فى حاجة إلى الألفاظ والجمل لتعرف هذا الشقاء الذى نشأ فيها منذ حين يسيرًا ضيقًا ، ثم أخذ ينمو ويشع حتى كاد يستأثر بها استئثارًا .

إن نفسى لغريبة الأطوار ، ولنى لأجد بينها وبين نفوس الأطفال شبهًا قويًا ، فأنا كالأطفال أفيض الحياة على الأشياء

الحمادة من حولي ، وأشيع فيها العقل والحس والشعور ويخيل إلى أنها تراني ، وتلحظني وتسمع مني وتفهم عني . ثم أتحدث إليها وأنتظر منها رجع الحديث كما يتحدث الأطفال إلى لعبهم ، وكما ينتظرون منها رجع الحديث .

وماذا أصنع الآن ؟ إنما أفيض عليك ، أيها الدفتر العزيز ، حياة وأشيع فيك حساً وعقلاً وشعوراً ، وأشكو إليك وأنتظر منك العزاء . لا أتكلف ذلك تكلف الأديب ، ولكنني أجد في ذلك جد الطفل . ذلك لأنني ضعيفة عاجزة وحيدة ، لا أستطيع أن أتحدث إلى الناس بما أتحدث به إليك ، لأن الذين أنتظر منهم المعونة والعزاء لا يحملون هذا الحديث ، ولا يقدرون لي على شيء ، بل لا يقدرون لأنفسهم على شيء ، ولأنني فقدت الثقة بغيرهم من الناس ، وكيف أستطيع أن أثق بالغريب وقد وجدت الخيانة من الغريب ؟ وكيف أستطيع أن أشكو إلى هذا الصديق أو ذاك وأنتظر منه تعزية أو تسلية أو نصحاً أو إخلاصاً وقد التمسيت النصيح والإخلاص عند أحب الناس إليّ وأكرمهم عليّ ، وعند أشد الناس لي حباً وأعظمهم لي إثارة فلم أجد منه إلا خيانة وغدرًا ؟

لك الله ، أيها الزوج العزيز النحس ، لو تعلم إلى أي حد انتهى بك الإثم ، وإلى أي طور أخرجك النزق ، لو تعلم أنك قتلت نفسك نفساً وسحقت قلباً ومزقت ضميراً ، لو ينفذ هذا الشعور

الхамدة من حولي ، وأشيع فيها العقل والحس والشعور ويخيل لي أنها تراني ، وتلحظني وتسمع مني وتفهم عني . ثم أتحدث إليها وأنتظر منها رجع الحديث كما يتحدث الأطفال إلى لعبهم ، وكما ينتظرون منها رجع الحديث .

وماذا أصنع الآن ؟ إنما أفيض عليك ، أيها الدفتر العزيز ، حياة وأشيع فيك حساً وعقلاً وشعوراً ، وأشكو إليك وأنتظر منك العزاء . لا أتكلف ذلك تكلف الأديب ، ولكني أجد في ذلك جد الطفل . ذلك لأنني ضعيفة عاجزة وحيدة ، لا أستطيع أن أتحدث إلى الناس بما أتحدث به إليك ، لأن الذين أنتظر منهم المعونة والعزاء لا يهتمون بهذا الحديث ، ولا يقدرّون لي على شيء ، بل لا يقدرّون لأنفسهم على شيء ، ولأنني فقدت الثقة بغيرهم من الناس ، وكيف أستطيع أن أثق بالغريب وقد وجدت الخيانة من الغريب ؟ وكيف أستطيع أن أشكو إلى هذا الصديق أو ذاك وأنتظر منه تعزية أو تسلية أو نصحاً أو إخلاصاً وقد التمسست النصيح والإخلاص عند أحب الناس إليّ وأكرمهم عليّ ، وعند أشد الناس لي حباً وأعظمهم لي إثارة فلم أجد منه إلا خيانة وغدرًا ؟

لك الله ، أيها الزوج العزيز التعس ، لو تعلم إلى أي حد انتهى بك الإثم ، وإلى أي طور أخرجك النزق ، لو تعلم أنك قتلت نفسك وسحقت قلباً ومزقت ضميراً ، لو ينفذ هذا الشعور

إلى نفسك ، لو يستقر هذا الخاطر فى عقلك ، إذن لكنت أشقى الناس ، وأضيقهم بالحياة وأزهدهم فيما تضطرب فيه من لذة ، وما تنهالك عليه من نعيم . لقد وثقت بك ثقة الطفل بأمه ، ولقد أمنت إليك كما يأمن الطفل إلى أمه ، فأضعت تلك الثقة وأزلت هذا الأمن ، ووطئت بقدميك نفساً أنت تحبها وتؤثرها ، وعرضت للشقاء والبؤس شخصاً هو أكرم عليك من نفسك وسعادته آثر عندك من سعادتك . ولكنك غافل لا تدري . لقد هممت منذ أيام أن أرد عنك هذه الغفلة ، وأذود عنك هذا الجهل ، وأزيل عن بصيرتك الغطاء ، وأظهرك على هذا القلب الذى تدميه ، وعلى هذا الضمير الذى تؤذيه ، وعلى هذه النفس التى تمزقها تمزيقاً . ولكنى لم أجرو لأنى أحبك وأعلم أنك تحبى وأخشى أن تكون المصارحة بما بينك وبينى من هذا السوء خطراً على هذا الحب الذى أريد أن أحوطه وأصونه وأحميه من الموت . لقد هممت بهذه المصارحة فى تلك الليلة التى جعلت تناقش فيها صديقك فيليب فيما ينبغى من احترام الأوضاع الاجتماعية ، لقد كنت لبقاً قوى الحجة فى ذلك الجدل ، ولكن صديقك قد أفحملك واضطرك إلى الصمت ، واضطرنى أنا إلى أن أترك غرفة الاستقبال حيناً لأكظم حزناً كاد ينفجر وأكفكف دموعاً كادت تنهل ، وأستعير من الصبر والجلد وقوة الإرادة وجهاً مشرقاً يمكن إظهاره لأضيافنا . كنت تقول لصديقك إن الخير فى ألا يستطيع

أحد أن يباديك من أمرك بما يخجلك فأجابه خير من ذلك ألا تبادل
أنت نفسك بما يخجلها ، فصدمتك هذه الجملة واضطرب لها لسانك
واحمر لها وجهك شيئاً ، واضطرت أنا إلى أن أتحوّل عنكما حتى
لا يظهر من أمرى مثل ما ظهر من أمرك .

أنت إذن عاجز عن أن تبلغ بنفسك هذا الطور ، وأنت إذن
تعرف من أمر نفسك ما لا تستطيع أن تبادلها به لأنه يخجلها .
فلو عرفت أن غيرك يستطيع أن يبادلها بهذا المخجل ، ولو عرفت أنى
أستطيع أن أقص عليك قصتك كلها مع صديقتنا لورنس . فماذا
أنت صانع ؟

ربما كان ابننا هذا العزيز البريء مصدر هذه الآلام التي تملأ قلبي ، وهذه الشقاء الذي يغمر نفسي ، وهذا اليأس الذي أحاول أن أخفيه فلا أكاد أظفر من ذلك بما أريد إلا مع الجهد العنيف الذي احتملته إلى الآن ، والذي لا أدري أستطيع أن أمضي في احتماله والصبر عليه . وكم يؤذيني ويضني نفسي البائسة أن أقرن ابني هذا العزيز البريء إلى ما أحس من ألم ، وما أجد من شقاء ، وما أتعرض له من يأس ، على حين أنه قرة عيني ونعمة بالي ومصدر سعادتي ، والقيمة لحياتي منذ عرفت نفسي إلى أن عرفته ، والغاية الصحيحة لحياتي منذ عرفته إلى الوقت الذي لا أقدر له فيه على شيء ، ولكن الشجاعة إنما هي مواجهة الحق كما هو ، والاعتراف بالواقع كما وقع ، وأمور الحياة كلها متناقضة على هذا النحو ؛ فيها الخير والشر ، وفيها النعيم والبؤس وعنهما تصدر السعادة ويصدر الشقاء . فلو أني خيرت بين ابني هذا العزيز البريء وبين أي لون من ألوان السعادة لما ترددت في الاختيار ، فهو حياتي بل هو أثر إلى من حياتي ، ولكنه مع هذا كله كان مصدر ما أحس من ألم وما أجد من شقاء .

كنت قبل مقدمه فارغة لزوجى مشغولة به مصروفة إليه موقوفة
 الجهد على حبه وإمتاعه بهذا الحب . وكان هو قبل مقدم هذا
 الصبي يحبنى كما تعود الأزواج العشاق أن يحبوا نساءهم ، يمنحنى
 خلاصة نفسه وصفوة ضميره ، ولكنه لا يمنحنى نفسه كلها ولا ضميره
 كله كما كنت أمنحه نفسى كلها وضميرى كله . كان يصرف عنى
 بين حين وحين إلى أعمال الحياة وأعراضها ، وإلى أسباب العيش
 وشواغله . ومن الحق أنه كان يضطرب فى هذا كله مفكرًا فى ،
 محبًا لى ، مؤثرًا لى بخير ما يستطيع أن يؤثرنى به من الحب والإخلاص ،
 ولكنه كان على كل حال يضطرب فى الحياة ويعنى بأعراضها
 وأسبابها ويصرف عنى بعض الشيء فى أثناء ذلك ولم أكن أنا أفكر
 إلا فيه ، ولم أكن أعيش إلا له ، بل لم أكن أعيش إلا به ، فكان
 حبنى يحوطه وكان حبنى يغمره ، وكان حبنى يأخذ عليه كل سبيل ،
 وكان حبنى يشتد حتى يثقل عليه أحيانًا ، وكنت أحس هذا وآلم له
 وألوم نفسى عليه وأرفه على صديقى فأعفيه من بعض ما كان يدفعنى
 إليه الحب الجامح من الكلف والهيام ومن البر والحنان . ولكن ابنتا ،
 هذا العزيز البرى ، أقبل ذات يوم فسعدنا بمقدمه وما زلنا سعيدين ،
 ونعنا بتنشئته وما زلنا ناعمين ، ونشأت بيننا صلة جديدة هو قوامها ،
 وشغلت أنا بهذا الصبي شيئًا وأصبحت لى فى الحياة غاية جديدة لم
 تكن لى من قبل . والله يشهد ما أضعفت هذه الغاية من حبنى ، ولا

خففت من وجدى ، ولا صرفت قلبي عن زوجي قليلاً ولا كثيراً ،
فإن لقلوب النساء سعة لا تعرفها قلوب الرجال فهي تستطيع أن تحب
الولد إلى أقصى غاية الحب ، وأن تحب الزوج إلى أقصى غاية
الحب ؛ وهي تستطيع أن تجمع بين هذين النوعين من الحب ، وأن
تلائم بينهما وأن تخلص فيهما دون تهاون أو تقصير .

هي أوسع من الزمان ، وهي أوسع من المكان ، وهي أوسع من
هذه الجهود المادية التي يبذلها الناس في الزمان والمكان ، هي تسع
حب الزوج وحب الولد ، ولكن الزمان لا يستطيع أن يسعهما في
حيز واحد ، أو نحن لا نستطيع أن نؤدي حقوق الزوج ، ولا حقوق
الولد معاً ، في لحظة واحدة وفي حيز واحد وفي جهد واحد .

فنحن إذا فرغنا للصبي وعيننا به صرفنا عن الزوج ، ونحن إذا
فرغنا للزوج وعيننا به صرفنا عن الولد . والرجال أثرون لا يحتملون
التقصير ، ولا يصبرون على التفريط ، وهم بعد هذا قلقون لا يرضون
عن شيء ، ولا يطمثون إلى شيء وهم بعد هذا وذاك جشعون ليس
لهم حظ من قناعة ، فهما نعطهم فنحن دون ما يطلبون . وكذلك
أخذت من الوقت الذي كنت أفرغ فيه لزوجي ما منحته للصبي ،
ولم يضق زوجي بذلك في ظاهر الأمر ولا خفيه ، وإنما رآه حقاً
وملائماً لطبيعة الأشياء ، وملائماً كذلك لما كان يملأ قلبه من حب
الصبي ، ولكنه على كل حال قد وجد من الوقت فراغاً لم أكن أشغله ،

ووجد حرية لم يكن يجدها ، واستطاع أن يخلو إلى نفسه وأن يتصرف في وقته ، وأن يشغل بغيري حين كنت أنا أشغل بالصبي ، وكذلك هيئت له أسباب لم تكن مهياة له من قبل ، وكذلك أحس فراغاً فأراد أن يملأه ، وكذلك انتهت به الحياة شيئاً فشيئاً إلى ما لم يكن يريد ، وإلى ما لم أكن أقدر أنه سينتهي إليه .

وكانت لورانس إلفاً لنا قد رفع بينها وبيننا الحجاب ، وزالت بينها وبيننا الكلفة ، تزورنا في كل وقت ونزورها في كل لحظة ، وولتقي على العلات لا نضرب للقاء موعداً ولا نهيه له أسباباً . كانت فارغة مثرية وكانت جميلة رائعة الجمال ، ردت الحرب إليها زوجها مريضاً قد أثقلته العلة . وقامت على تمريضه والعناية به جادة في ذلك كل الجدد ، مخلصه له كل الإخلاص ، ولكن العلة كانت أقوى من جدها ، وأنفذ من إخلاصها ، فقضى ذلك الشاب المسكين شهيداً من شهداء الحرب ، وما أكثر هؤلاء الشهداء الذين عادوا إلى أوطانهم يحملون الموت في ناحية من حياتهم ، يجاهدونه ويجاهدهم فقليل منهم يطول به الجهاد فيحيا حياة قد استأثر الموت بأعظمها ، وكثير منهم يصرعون فيفارقون هذه الدنيا وفي نفوسهم من الآلام والحسرات ما لا سبيل إلى وصفه . آلام الأمل الذي ينقطع وقد كان خليقاً أن يتصل ؛ وآلام الرجاء الذي ينبت وقد كان حرياً أن يدوم ، وحسرات الشهيد الذي كان خليقاً أن يتجرع

لذة الشهادة وشرفها في ميدان القتال فإذا هو يموت في فراشه ،
حزيناً كثيباً بعد أن صارع الموت ألف مرة ومرة .

وقد احتملت لورنس خطبها جلدة ، وصبرت عليه عزيزة النفس
عميقة الحزن ، وصرفت عن الحياة ولذاتها أعواماً ، ولكن في شيء
مؤثر حقاً من الاحتفاظ بالكرامة ، والاعتداد بالنفس ، وادخار الحزن
لحلوتها حين لا ترى أحداً ، ولا يراها أحد . وكنا نجد ذلك منها ،
فنعجب به ونعجب له ، ونرفق بها أشد الرفق ، ونكبرها أعظم الإكبار ،
ونصرف ما نبذل من جهد لنصرفها عن هذه الحلوة التي كان الحزن
ينتظرها فيها ، ومن هنا كثر اتصالنا بها واشتد اتصالها بنا . فقلما
كان يمضي يوم لا أراها فيه مصبحة ومسية ، وقلما كنا نخرج
لرياضة لا تشاركنا فيها . كانت ثالثتنا إن خرجنا منفردين ، وكانت
واحدة منا أن خرجنا في جمع من الأصحاب والأصدقاء .

وما خطر لي قط وما خطر لها وما خطر لمكسيم أن هذا الصفو
الجميل يمكن أن تشوبه شائبة ، أو تعدو عليه عادية ، ويكدره
خاطر سوء . ومع ذلك فقد كان جمالها خليقاً أن يفتن ويروع ،
ولكنها كانت واثقة بنفسها ، مشغولة بجزمها لا تتعزى عنه إلا
في ظاهر الأمر ، وكان مكسيم واثقاً بنفسه مشغولاً بحبه وأعماله
منصرفاً إليهما عن كل شيء وعن كل إنسان . وكنت أنا مطمئنة
إلى الصداقة والحب ، حتى تكشف لي الأيام عما تكشف عنه ،

وإذا الحياة كلها غرور ، وإذا الضعف الإنساني أقوى من كل عاطفة ، إن صح أن يوصف الضعف بالقوة ، فهو الذى يسيطر على حياتنا ويدبر أمورنا ويسخرنا لغرائزنا ويصرفنا كما تريد لا كما نريد .

ولا بد من أن أصدقك الحديث ، أيها الصديق العزيز ، ومن أن أصور لك الأمر كما كان ، ومن أن أشهد بين يديك بأن صديقتنا لورنس قد وفّت لنفسها ، وفّت لزوجها الشهيد ، وفّت لحزنها المتصل ولصديقها الوفية . فلم تشارك فى أثم ولم تغر به ، ولم تدع إليه ، وإنما اضطرت إلى المقاومة ، وإلى المقاومة الطويلة المتصلة ، وكانت البائسة تجاهد الحزن والشكل ، فاضطرت إلى أن تجاهد هذا الحب الذى طرأ عليها فأفسد أمرها ونقص حياتها تنغيصاً ، لا ألوم أحداً ولا أتجنى على أحد ، فإن أمور الحب لا تخضع للإرادة ولا يستطيع العقل أن ينظمها ويدبرها ، وإنما هى خطوط تطرأ فيستجيب لها من يستجيب ، ويعنو لها من يعنو ، ويمتنع عليها من يمتنع . ويختلف ذلك باختلاف طبائع الناس وحظوظهم من القوة والضعف ، ومن الشدة على نفوسهم واللين لها .

وما أرتاب فى أن مكسيم قد كان طاهر القلب صافى النفس فيما كان بينه وبين صديقتنا من صلة أول الأمر ، ولكن إعجابنا وعطفنا عليها قد أخذنا فيما أظن يتحولان قليلا قليلا فى نفسه إلى شيء من الحنان ، كان يجد راحة إليه وكان يعن فيه شيئاً فشيئاً . وقد

كان ارتفاع الحجاب وزوال الكلفة وما كنا فيه من حياة بسيطة يسيرة طلقة خليقاً أن يضاعف هذا الحنان ، وأن ينحرف به شيئاً عن طريقه الأولى إلى طريق أخرى . وما أرناب في أن مكسيم قد أنكر ذلك حين أحسه وقد جد في مقاومته ، ولكن غرائز نفسه كانت أقوى من عقله ، وظروف الحياة كانت أدعى له إلى الضعف وأخرى أن تورطه فيه . فهأننا هذه أصرف عن زوجي بعض الشيء بالحمل وأعراضه ، ثم بمقدم الصبي وتنشئته ، والزيارات بيننا وبين لورنس متصلة تسعى إلينا إذا لم نسع إليها . وما أكثر ما حال ثقل الحمل وعنايتي بالصبي بيني وبين الخروج للرياضة . وما أكثر ما كنت ألح على زوجي وصديقي في أن يخرجنا منفردين ، ومع الأصحاب والأصدقاء . وما أكثر ما كانت تزورنا لورنس فأصرف عنها إلى بعض شأني ، أو يضطرنني المرض إلى الانفراد في غرفتي ، ويتاح لها من لقاء مكسيم والحديث إليه منفرداً ما لم يكن يتاح لها من قبل . وما خطرلى قط أن ذلك قد يتعرض لريبة ، أو يدعو إلى شبهة ، أو يثير بين الصديقين عاطفة سوء ، وما لاحظت قط في حياة مكسيم أو حياة لورنس شيئاً جديداً يدعو إلى التفكير ، أو يثير في نفسي من سوء الظن قليلاً أو كثيراً . ولكنني صدمت بذلك فجأة وعلى غير تقدير . وما أدري كيف احتملت الصدمة ؟ وما أدري كيف ثبت لها ؟ وما أدري كيف أخفيت آثارها في نفسي على الناس جميعاً

وعلى مكسيم قبل الناس جميعاً ؟

لا تسخر مني ، أيها الدفتر العزيز ، حين أثني على نفسي ،
 وحين أحمد هذه الشجاعة النادرة التي تلقيت بها هذا الخطب العظيم ،
 فقد تلقيت النبأ فانحطم له قلبي ، واندكت له آمالي كلها ، ومع
 ذلك لم أظهر من هذا شيئاً . تلقيت النبأ وكان ابني هذا العزيز
 البريء ، هو الذي حمّله إليّ في بعض عبثه . ولست أدري كيف
 انسل إلى مكتب أبيه ، ولست أدري كيف خلص إلى بعض ما كان
 فيه من أوراق ، ولست أدري كيف استخلص منها هذا الكتاب الذي
 حمّله إليّ فرحاً مبتهجاً ، وظافراً منتصراً ، كأنه الجندي يحمل
 بعض الأسلاب إلى قائده مبتهجاً فخوراً .

تلقيت الكتاب من يد بيير مبتسمة مشفقة ، مبتسمة لعبث الصبي ومرحه ودعابته ، ومشفقة أن يكون لهذه الصحف التي يحملها إلى بعض الخطر ، وأن يكون قد أفسد النظام في مكتب أبيه ، وهو حريص أشد الحرص على أن يكون النظام في مكتبه دقيقاً ، وعلى أن تترك الأشياء فيه كما وضعها هو ، لا يحول منها شيء عن موضعه ، يغلو في هذا الحرص حتى يوشك أن يكون علة من علل نفسه ، وحتى يؤديه أن يدخل أحد مكتبه في غيبته أو يمس منه شيئاً . ولقد هممت غير مرة أن أرتب له مكتبه على نحو كنت أراه ملائماً جميلاً ، فردني عن ذلك رداً لم يخل من عنف ، ولعله ترك في نفسي آثاراً لم أكن أحبها حتى انتهى الأمر بيننا إلى اتفاق صامت على أن كل ما في البيت طوع يدى ورهن أمرى أنا له بما شئت من تغيير وتبديل إلا هذه الغرفة ، فإنها حرام ما ينبغي لي أن أمسها ، أو أن أغير من نظامها شيئاً ، فلما وقعت في يدى هذه الصحف تلقيتها مشفقة مذعورة ، ثم نظرت فيها فرأيت ، ويا هول ما رأيت ! وكنت خليقة أن أفقد الصواب ، وأن أخرج عن طور الرشد ، وكنت خليقة أن أجحد الدوار وأن أسفح الدمع ،

وكنت خليقة أن أتعرض لأزمة من هذه الأزمات العنيفة الحادة التي تتعرض لها المرأة حين تهان في حبها ، وحين تخيب آمالها وحين تظهر لها الخيانة ماثلة ، وقد كانت ترى نفسها بمأمن من الشك والريب . ولكني رأيت بعض جمل الكتاب فقرأته مستقصية ، ونهضت بعد قراءته هادئة النفس مستقرة القلب ، فسعيت إلى مكتب زوجي ورأيت درجاً من أدراجة قد فتح شيئاً ، فعرفت أن يد الصبي قد امتدت إليه فأخرجت ما كان فيه من أوراق ، ونثرتها في أرض الغرفة نثرًا ، ثم صنعت بغيره هذا الصنع ، ثم ألقيت الكتاب الذي حمله الصبي إلى بين هذه الأوراق الماثورة ، ثم خرجت فأغلقت الغرفة وأخذت مفتاحها ثم آويت إلى غرفتي وأغلقت بابها من دوني ، ثم انتظرت الأزمة ولكنها لم تأت ، ثم دعوت الأزمة ولكنها لم تستجب ، وإنما انحدرت من عيني دموع يسيرة جدًّا ، لم ألبث أن جففتها ، وظللت في غرفتي هادئة واجمة بعض الشيء محزونة أشد الحزن وأمضه ، عاجزة كل العجز عن أن أجِد من هياج الأعصاب ، أو انهمال الدمع ما يخفف وطأة هذا الحزن على هذا القلب الكسير . فلما استيأست من ذلك نهضت متثاقلة ، وخرجت من الغرفة فلقيت الصبي في بعض عبئه فأخذت بيده وهبطت به إلى الحديقة ، وجعلت ألأعبه وأداعبه . وأقبل مكسيم بعد ساعة ، فتلقيته ساخطة صاحبة ألومه أعنف اللوم ، لأنه يحرص على النظام في مكتبه ،

ثم لا يحتاط لهذا النظام فيترك بابه مفتوحاً ، ويعرض مكتبه بذلك لعبث الخادم ، ولعبث هذا الصبي العفريت خاصة .

ثم أزعج له أن الصبي قد انسل إلى مكتبه ، فأحدث فيه فساداً عظيماً وأنه سيجد مشقة في رده إلى ما يحب ويألف من النظام ، وهو خليف بهذه المشقة ، فلعلها تعلمه أن يأخذ مفتاح مكتبه معه منذ اليوم . ثم أدفع إليه مفتاحه فيتلقيه هادئاً مبسماً ، ويرفع الصبي بين ذراعيه مبتهجاً ، فيقبله ويهنئه ، أو يهنئ نفسه بهذا الطور الجديد من حياة ابنه الذي أصبح قادراً على أن ينسل إلى الغرف ، ويفسد ما فيها من نظام . ثم يصعد متثاقلاً إلى مكتبه فيلقى عليه نظرة ثم يعود مغرقاً في ضحك متصل ، وهو يقول إن إصلاح هذا الفساد أطول من أن آخذ فيه قبل الغداء .

ثم تمضي أمور الدار على ما تعودت أن تمضي عليه كأن لم يحدث شيء . ولكن في الدار قلباً محطماً قد ذاق خيبة الأمل وعرف مرارة اليأس ، ولن يبرأ من هذه العلة التي مزقته تمزيقاً .

١٤

ولكنى لم أحدثك بشيء من هذا الكتاب ، أيها الدفتر العزيز .
وما أشد أسنى لأنى لم أحفظه عن ظهر قلب ، أو لم أتخذ منه نسخة
أعاهد النظر فيها بين حين وحين . فهو خليق أن يحفظ وأن يسجل ،
لأنه يصور الضعف والقوة معاً ، كأقصى ما يكون الضعف وكأقصى
ما تكون القوة ، ولأنه يصور الوفاء للصديق والاستسلام للحب ،
والصراع العنيف بين هذا الاستسلام وذلك الوفاء ، والانتهاى إلى اليأس
من المقاومة والفرار آخر الأمر إلى حيث يمكن الانفراد مع الحزن
اللاذع والألم الممض ، وإلى حيث يمكن الانتظار لروح الله الذى
قد يريح من آلام الحياة بما يفيض من السلوى والعزاء ، وقد يريح
من الحياة نفسها إذا لم تكن سبيل إلى السلوى والعزاء .

كل هذا كان مصوراً فى ذلك الكتاب تصويراً يسيراً ساذجاً ،
لا تصنع فيه ولا تكلف ، حتى لقد كان يخيل إلى أن هذه الصديق
المسكينه إنما أفاضت فيه نفسها البائسة ، وأودعته قلبها الكئيب .
وكانت لورنس قد ودعتنا منذ أيام ، وزعمت لنا أنها مسافرة إلى باريس
لتتفق فيها أسابيع ، ثم عائدة إلينا بعد ذلك وقد جددت العهد
بالعاصمة وما فيها ومن فيها ، مما تحب من المعالم ، ومن تألف من

الأصدقاء . وكنت قد أنكرت هذا السفر وضقت به ، ورأيت أنها تقدم عليه في غير إبانة ، ولكني رأيت منها إلحاحاً فيه وتصميماً عليه ، ولم أجد إلى صرفها عنه سبيلاً فودعتها كارهة واستكتبتها وجعلت أنتظر كتبها دون أن أتلقي منها شيئاً حتى قرأت هذا الكتاب ، فعرفت منه أنها لم ترحل إلى باريس ، وإنما خدعتنا عن نفسها ، وعبرت البحر إلى حيث لا ندري من الشرق الأدنى ، أو من الشرق البعيد ، وأنها لن تعود إلا حين تستيقن بقدرتها على العودة ، وعلى أن تعيش معنا كما كانت تعيش منذ حين ، نقية القلب والنفس والضمير ، قادرة على الوفاء لصديقها بما ينبغي من الود الخالص الذي لا يثم فيه ولا ريب .

وجدت في هذا الكتاب قصة نفسيين قد لقينا من قوة الإرادة وضعف الغريزة أشد العذاب . وكانت نفس لورنس أقواهما وأمضاهما وأشدهما احتمالاً وأقدرهما على المقاومة . فهي قد أحست عطف مكسيم عليها ورعايته لها ، ثم أحست تحول هذا العطف والرعاية إلى شيء من الحب والحنان ، ثم أحست قوة هذا الحب وشدة هذا الحنان فتلقت هذا كله لقاء حسناً نقيّاً . ولكن حب مكسيم أُلح عليها وجعل يتبعها ويقفو آثارها ، ثم جعل يمسها مسّاً رقيقاً ثم جعل يحيط بها ويغمرها ، وهي تقاومه وتدافعه وتحاول النجاة منه كما يحاول الغريق أن ينجو من الماء الذي يطغى عليه ، وقد نجحت مقاومتها مرة ومرة ،

وأفلتت من شباك الحب تلك التي كان ينصبها لها مكسيم ، وكانت تنصبها هي لنفسها ؛ ولكن مكسيم غلا في الإلحاح ، وأسرف في التبع . وظهر من أمرها على ما كانت تخفى ، واستيقن أنها تلقى حبه بحب مثله ، وأن نقاء الضمير وحده هو الذي يحول بينها وبين الاستجابة له . والانقياد لهواه فاضطهدها مصبحاً واضطهدها ممسيًا ، واضطهدها حين كانت تزورنا ، وجعل يزورها حين كانت تقعد عن زيارتنا ، وتنتحل لذلك ما كانت تنتحل من معاذير . وكانت المسكينة ترى هذا الإلحاح العنيف ، وتجد في نفسها إلحاحاً مثله ، وكانت ترى مكسيم يدفع إليها دفعاً وترى نفسها تدفع إليه دفعاً . ولكن صورتين اثنتين كانتا تنتظرانها دائماً عند الهوة ، فتردأها عنها وتعضمانها من السقوط .

فأما إحدى هاتين الصورتين فكانت مخيفة منذرة ، تبعث الخوف وترسل النذير في صمت مزعج رهيب ، وهي صورة زوجها الفقيد الشهيد الذي وفي لها في حياته ، وشقى بالدفاع عنها أثناء الحرب ومات في سبيل هذا الدفاع . وأما الصورة الأخرى فكانت مشجعة في حزن ، ومتوسلة في ابتسام وهي صورة صديقها مدلين ، تحمل بين يديها ابنها بير ، تبسم له وتبسم لها وتنظر إلى مكسيم نظرة فيها تساؤل واستغراب ! كانت المسكينة كلما بلغت الهوة وأوشكت أن تسقط بين ذراعي مكسيم رأت هاتين الصورتين تكتنفانها فارتدت فزعة مذعورة ، ثم

كانت المسكينة تخلو إلى نفسها بعد ذلك فتلقى من الحب العنيف ومن الوفاء العنيف . تلقى من الغرائز الضعيفه والإرادة القوية عذاباً ينغص عليها الحياة تنغيصاً ، حتى أنكرت نفسها وأشفقت أن يلم بها طارق من جنون .

هنالك لم تر المسكينة بدءاً من أن تفر منا جميعاً إلى حيث لا ترى هذا الحب الآثم الذى لا تكاد تفلت منه ، وإلى حيث لا ترى هذا الزوج الشهيد مخوفاً منذراً ، وإلى حيث لا ترى هذه الصديق الوفية باسمه منكورة متسائلة ، وبين ذراعيها طفلها هذا الوادع البريء .

إن فى الرحلة إلى الشرق ، والنظر إلى ما فيه ومن فيه لعزاء عن مثل هذا الحزن الملح والألم المقيم والعذاب المتصل ، إن كانت إلى العزاء عن ذلك سبيل . فإن لم أجد العزاء فسأجد من بعد الشقة بينك وبينى أيها الحبيب البغيض ، ما يعصمك ويعصمنى من هذا الحزى الذى إن كنت تطيقه الآن فستضيق به غداً ، والذى لا أستطيع أن أرى نفسى متورطة فيه .

وداعاً أيها الحبيب إلى وإن كنت أبغض حبك وأضيق به .
وداعاً أيتها الصديق البائسة الأمينة . لن أراكما ولن أرى طفلكما حتى استيقن بأنى أصبحت لرؤيتكم أهلاً .

وداعاً ، وإن كان فى الحياة ما يعزىنى ويسلىنى فهو أنى هممت بالإثم ولم أتورط فيه ، وكدت أخونك يا مدلين ولكنى آثرت اتصال

العذاب والحرمان والغربة على أن أنظر إليك فأستحي منك ، وعلى
أن يكون في قلبي شيء لا تستطيعين أن تظهرى عليه .
بذلك ختمت المسكينة كتابها وقد استقرت كلماتها هذه في نفسي
كأنما نقشت في قلبي نقشاً .

أين أنت الآن يا لورنس ! كم أحب أن ألقاك وأن أضمك إلى ،
وأن نمزج دموعنا التي تصور ما يملأ نفسينا من اليأس والحب والوفاء
معاً ؟

أقبل الصبي فرحاً كالمرتاع ، يكلف ساقيه الضعيفتين من العدو فوق ما تطيقان ، ويدبر في فمه الصغير لساناً لا يكاد ينطق بهذه الألفاظ : « أماء أماء انظري هذه السيارة » ولم أستطع أن أقاومه ولا أن أمتنع عليه ، حين أخذت يده الصغيرة بيدى الكبيرة تجرني إلى حيث أرى ما كان يريد أن يظهرني عليه . ولو استطعت لأعرضت عنه وعن سيارته التي كان يريد أن يظهرني عليها ، ولضيت فيما كنت فيه من القراءة ، لأنني كنت مشغوفة بما كنت أقرأ ، ولأن ألفاظه وقعت من نفسى موقع النذير . فقد عرفت السيارة حين ذكرها وعرفت من فيها ، فلما رأيته ورأيت من كان فيها لم أزد علماً ، ولم أعرف جديداً .

وما من شك في أن قلبي قد خفق لألفاظ الصبي ، ولكن الشيء الذى هو موضع الشك والريب والتردد الشديد هو تفسير هذه الخفقات التي اضطرب بها قلبي ، أكانت خفقات بالرضى والغبطة أم كانت خفقات بالغضب والضيق ؟ فقد كانت السيارة سيارتنا ، وكان الذى يقودها مكسيم ، وكان فراقنا قد طال أمده شيئاً ، وإن لم تنقطع بيننا الرسائل ، ولم يعرف منى حين ودعته ولا حين كنت

أكتب إليه أنى كنت مغاضبة له أو واجدة عليه . ولكنى فى حقيقة الأمر كنت غاضبة بل أكثر من غاضبة وكنت واجدة بل أكثر من واجدة . كنت محطمة القلب خائبة الأمل ، ملتاعة النفس محزونة الضمير . وكنت أدافع نفسى أشد الدفاع عن مصارحة زوجى بهذا كله أو بعضه أريد أن أثار للكرامة التى أهينت ، والحرمة التى انتهكت والحب الذى أضيع ، وأخشى أن فعلت إن يكون الفساد الذى لا سبيل إلى إصلاحه والصدع الذى لا سبيل إلى رأيه . ثم طال هذا التردد ، وطال حتى تغلب العقل ، أو تغلبت العاطفة أو اتفق العقل والعاطفة ؛ فأغمضت عيني على القذى ، وطويت قلبي على ألمه واحتفظت لنفسى ، ولك أيها الدفتر العزيز بهذا السر الأليم . فلم يعلم زوجى أنى قد ظهرت على إمره ، وأنى قد تأثرت منه بقليل أو كثير ، وفى سبيل الحب ما تكلفت فى ذلك من عناء ، وفى سبيل الحب أيضاً ما أرقّت فى ذلك من ليل طويل ، وأعنف نفسى أشد التعنيف وأصفها بالحبين مرة ، وبالضعة والدلة مرة أخرى .

فى سبيل الحب هذا كله ، فإن هذه المحنة القاسية لم تتكشف لى إلا عن شىء واحد هو أنى أحب مكسيم إلى أبعد ما يمكن أن ينتهى إليه الحب ، وأحتمل فى سبيله أقسى ما يمكن أن تحتمل المرأة من مشقة وجهد وتضحية . ظهرت على خيائته فلم أحس ثورة جاححة وإنما أحسست ألماً لاذعاً ، وتبينت إثمه فلم تتحدث إلى

نفسى بالقطيعة وإنما تحدثت إلى بالفرار إلى حيث أستريح وأستجم ،
ثم أستأنف الجهاد لاكتساب هذا القلب الذى أخذ يقلت منى وبهم
بغيرى .

وكننت أثناء هذه الأسابيع التى خلوت فيها إلى أبوى ، وإليك
أيها الدفتر العزيز ، أغالب الشوق إلى مكسيم فأغلبه حيناً ، ويغلبنى
حيناً ، وأغالب الغضب على مكسيم فيقهرنى حيناً وأقهره حيناً .
ولولا أنى وجدت منهما ومنك ، ومن القراءة ، ومن هذه الطبيعة المشرقة
الباسمة المتألقة ، ما كان يشغلنى عن نفسى ويصرفنى عما كان يتنازعنى
من العواطف والأهواء ، لانتهى بى الأمر إلى ما لا أحب . ولكنى
تمالكت حتى كان هذا اليوم الذى أقبل فيه الصبى ينبئنى بمقدم
السيارة فأحسست هذا التردد بين الابتهاج والابتئاس ، وبين الرضى
والسخط ، ثم نهضت مع الصبى فماشيته إلى حيث أراد ، وإلى حيث
ألقى نفسه بين ذراعى أبيه ، وقد أخرجه الفرح عن طوره ، وإلى
حيث استقبلت أنا مكسيم بابتسام فاتر ، ونشاط متكلف ، وشهد الله
لقد تصنعت هذا الفتور وتعلمت هذا التكلف ، ولو أرسلت نفسى
على سجيته وأطعت غريزتى لألقيت نفسى بين ذراعى زوجى
صاحكة باكية ، ومغرقة فى الحزن والفرح معاً . ولكنى تكلفت الأناة
والوقار ونجحت فيما تكلفت ، فأرسلت إلى نفس مكسيم شيئاً من
الفتور وخيبة الأمل .

قبلته متناقلة فقبلني متناقلاً ، واتصلت بيننا لحظات صامتة لم
نعرف فيها كيف نقول ، ثم قطع الصمت بصوت متهدج مضطرب
وهو يقول في ألفاظ متقطعة شيئاً : لقد كنت أظن أن مقدى سيشيع
في نفسك من السرور أكثر مما رأيت ! !
فلم أعرف كيف أجيبه ولكنني انحنيت إليه فقبلته في رفق ،
وقلت له في حنان : هلم نسلم على أبويّ فلإنهما من غير شك قد أحسا
مقدمك .

ولم يطل مقام مكسيم في بيت أبوى ، ولم أستطع أن أنخلف عنه ،
لأنى خشيت إن فعلت أن يظهر أبواى على أن بيننا شيئاً . وكنت
أكره ما أكون لإظهارهما على هذه الكارثة ، ولعل لا أصدق إن زعمت
أن هذا وحده هو الذى منعى من التخلف عن مكسيم ، وما تعودت
أن أكذبك أيها الدفتر العزيز ، ولا أن أستحي منك ، فلأقل الحق ،
ولأسجل مستخذية منك ، ومن نفسى ، أنى رجعت مع مكسيم ،
مستسلمة لحبه مدعنة لسلطانه ، عائدة إلى طاعته متجافية عن خيائنه ،
وإن كنت لم أنسها ولم أعف عنها فى قرارة نفسى . ولكنى اتخذت
لها من قلبى زاوية أقررتها فيها ، وألقيت بينى وبينها ستاراً ، واستجبت
لدعاء الحب ، فألقيت نفسى فى ناره المضطربة ، ووجدت فى الاحتراق
بهذا البلحيم نعيمًا أى نعيم ! ! وقد أنسى أشياء كثيرة قبل أن أنسى
عودتنا إلى المدينة ، فى ضحى ذلك اليوم الذى أشرقت فيه الشمس ،
وصفت فيه السماء ، ورق فيه الجو ونخف فيه الهواء ، وظهرت فيه
الطبيعة هادئة باسمه ، تستقبل حياة هادئة باسمه ، وتغرى الناس بأن
يأخذوا بحظوظهم من الهدوء والابتسام ، وقد استجبنا لهذا الدعاء ،
ونخضعنا لهذا الإغراء ، وظهر على وجهينا هدوء مطمئن ، وابتسام

يصور الرضى ، وميل إلى الدعة واستسلام إلى الأمن ، وانصراف عن الجهد . وقد أسلم مكسيم قياد السيارة إلى السائق ، وآثر السكون والهدوء ، وجلس إلى جانبي ينظر إلىّ في وداعة وحنان ، وأنظر إليه في رفق وعطف . والصبي أمامنا منطلق في أحاديث لا نفهم إلا أقلها ، قد انصرفنا عنه إلى أنفسنا ، وقد ألقيت رأسي على كتف مكسيم وجعلت أنعم بهذه الساعة الحلوة ، وإذا دموع تنحدر من عيني ، لا أدري لماذا انحدرت . فلم أكن في حاجة إلى البكاء ، ولم أشعر بدافع إليه ، ولكن هذه الدموع انحدرت في صمت ، ولم يسألني عنها مكسيم . وإنما مسحها في رفق ، وضمني إليه ضمناً خفيفاً . ثم مال إلىّ فقبلني في هدوء ودعة ، لم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً ، وإنما لبثت كما كنت ، وظل كما كان ، حتى أشرفت بنا السيارة على المدينة ، ونبهنا الصبي إلى مكاننا منها بما كان يدلنا عليه من المعالم والعمارات ، فاعتدلت في مجلسي واستقبلت المدينة والحياة فيها استقبال الجدد والطمأنينة والإذعان .

ولقد استأنفت حياة جديدة فيها حب شديد النشاط ، وكلف بعيد الأثر في النفس يوشك أن يكون هياماً . وفيها ترقب لكل ما يصدر عن مكسيم من لفظ وحركة ، وما يضطرب على وجهه من المظاهر، وفيها تفهم لنبرات الصوت وخلجات العين . وما أكثر ما كنت ألوم نفسي على ذلك ، وأحذرهما الإسراف في تتبع مكسيم . ومضايقته بهذا الحب

الملح ، وإغراقه بهذا السيل الجارف من العواطف . فقد يؤذيه ذلك وقد يخرج به وقد يغيطه وقد يخرج عن طوره . وكنت أنجح أحياناً فأخفف من هذا الإلحاح ، وأقلل من هذا التبع ، وأظهر كأني معرضة عنه بعض الإعراض . ولكنه كان يلحظ ذلك في سرعة وينهني إليه في خفة ، ويظهر الألم لإعراضه عنه والتبرم بتقصيري في ذاته ، فأعود إلى أكثر مما كنت فيه من عناية ورعاية ، ومن ترقب وتتبع ، وينعم هو بهذا الحب والملح وبهذا السيل الجارف الذي يندفع . فلا يكاد يتي على شيء . وكان يقول لي إنه يجد اللذة كل اللذة والنعم كل النعم في أن يغمره هذا الحب حتى يغرقه ، وأحب شيء إليه أن يؤذيه الحب ، وأن يشق عليه وأن يعذبه في جسمه ونفسه ، وكنت أسأل نفسي عن مصدر هذا الهيام الطارئ والشغف الجديد ، فلا أجد لسؤالي جواباً . وربما عللت ذلك بما كان من افتراقنا أسابيع ، وربما أعدت على نفسي ما قرأت في غير كتاب : إن من الخير للعاشقين أن يفترقا بين حين وحين ، ذلك أجدي على جبهما وأخرى أن يجدد منه ما بلى ويقوى منه ما ضعف . ولكننا لم نفترق لأول مرة وقد افترقنا في العام الماضي والعام الذي قبله ، فلم نجد من الحب والكلف والهيام مثل ما نجد الآن .

أف للشيطان !! إنه لقريب من الإنسان دائماً ، وإنه لنافذ البصيرة قوى الحجة بالغ الأثر في النفوس . ها هو ذا يدنو مني خفيفاً

متلطفًا ، قبيح المنظر مع ذلك سمج المخضر . ويقول لى فى غير صوت مسموع ، ولا لفظ مبين ، لا تعجل بالرضى ولا تسرعى إلى الأمن ، ولا تنسى أنك مدينة بهذه النعمة لصديق غائبة تطوف فى الشرق القريب أو الشرق البعيد . اذكرى لورنس فهى التى سافرت ، فأخلت لك قلب زوجك الضعيف ، ولو أنها بقيت ، ولو أنها عادت ، لكان لك شأن غير هذا الشأن ، ولا اضطربت فى قلبك عواطف غير العواطف التى تضطرب فيه .

ثم ينصرف الشيطان خفيًا متلطفًا وقد ترك أمامى فى الهواء صورة لورنس يشيع فى وجهها ابتسام غريب .

واحسرتها ! ! أحق هذا ؟ أحق أنى مدينة بهذه السعادة الطارئة لهذه الصديق الشقية ، التى تطوف فى الشرق القريب أو البعيد .

ليتنى أعرف أين هى ، ليتنى أستطيع أن أكتب إليها ، إذن لتحديث هذا الشيطان ، ولدعوتها وألححت فى دعائها لأعلم أعاد مكسيم إلى حبي ، لأنه ما زال يحبني ، أم عاد مكسيم إلى حبي ليتسلى به عز غيبة لورنس ؟

١٧

كذب الشيطان ، وصدق وحى الضمير . لست مدينة بهذا الحب المجدد لغيبة لورنس ، وإنما هى عواطف فترت وقتاً ثم استأنفت النشاط ، وإنما هو حبنا القديم قد عاد سيرته الأولى بعد أن اعترضته مصاعب لم تلبث أن أزيلت ، وعقاب لم تلبث أن ذلت . وقد كانت لورنس إحدى هذه المصاعب والعقاب ، فقد ذهبت لورنس ونحلا لى بذهاها وجه مكسيم . وكانت طفولة الصبي إحدى هذه المصاعب والعقاب ، فقد نما الصبي وربا وأصبح يستطيع أن يشغل نفسه من جهة ، وأصبحت أستطيع أن آمن عليه المربية والخادم من جهة أخرى ، واسترددت كثيراً من الوقت والجهد اللذين كنت أنفقهما فى تنشئته والقيام عليه ، ورددت هذا الوقت والجهد إلى مكسيم صاحب الحق الطبيعى فيهما .

فرغت له وفرغ لى فاستأنفنا حياتنا كما كنا نحياها فى أول عهدنا بالزواج . ومالى أسأل نفسى عما عسى أن يكون لو عادت لورنس ولا أسألها عما عسى أن يكون لو أتيح لى طفل آخر . لقد كنت غافلة ثم تنبهت ، وكنت جاهلة ثم علمت ، فتستطيع لورنس

أن تعود أو لا تعود ، فقد عرفت كيف أحوط زوجي وأحمي قلبه ،
وأرد عنه عاديّات الحب من لورنس أو من غيرها . وما أشك في أن
نفسى راغبة أشد الرغبة في ألا نقف عند هذا الصبي الوحيد ، وفي
أن نمنحه أخاً أو أختاً . ولكنى لست متعجلة وقد أستطيع أن أنعم
بالفراغ لزوجي عاماً أو عامين ، وقد أتيح لنا من حسن الحال وسعة
العيش ما يمكننا من أن نربي طفلنا الجديد ، إن أقبل ، على غير
ما ربينا عليه أخاه ، فلا أمنحه وقتي كله وجهدى كله ، ولا أنصرف
إليه عن زوجي ولا أنصرف إليه عن حق في الحياة فلاأرد عن نفسي
كل هذه الخواطر المظلمة ، ولأستقبل الحياة راضية باسمه ولأنعم بما
تحمل إلى من أسباب الأمن والنعيم ، ولأغلق دون الشيطان باب
قلبي وسمعى ، فإنه لا يوسوس إلا بالشر ولا يلتقي في النفوس إلا اليأس
والقنوط .

وقد فعلت ، فضت أمورنا على خير ما كنت أحب وعلى
أحسن ما كنت أتمنى وقتاً ما أدري أطل أم قصر لولا أنى أرجع إلى
الذاكرة فأحصيه فإذا هو أشهر ، وأرجع إليك أنت أيها الدفتر
العزیز ، فأرى آخر عهدى بالتحدث إليك ، فيصدق الإحصاء ،
وأبين أنى قد أعرضت عنك ستة أشهر كاملة ، لأنى لم أكن فيها
محتاجة إليك ، وما حاجتى إليك وقد استأثر مكسبى بكل وقتي ،
وكل نفسى ، وشغلنى عن كل شيء وعن كل إنسان ومنعنى حتى

ألم تحدث نفسك ، أيها الدفتر العزيز ، حين أحسست يدي وهي تأخذك وتقلب صفحاتك بأني شقية بائسة ؟ وأن الشقاء والبؤس هما اللذان أبلآني إليك وذكراني بمكانك من غرفتي ؟ كلا لم تحدث نفسك بشيء لأنك لم تحس شيئاً ، وأين أنت من النفس والحس ؟ وإنما أنا التي تحدث نفسها بهذا كله ، ولا تستطيع أن تخلو بهذا كله إلى نفسها ، ولا أن تبته أحدًا غيرها ، فهي تلقيه إليك ، بعد أن تفيض عليك من الحياة ما يخيّل إليها أنك شخص مثلها ، تسمع ، تعقل ، وتستطيع أن تمنحها السلو والعزاء . وأى سلو وأى عزاء ؟ . مـ " أريد أن أسلو وعمـ " أريد أن أتعزى . أو لا يزال لي في شيء من ذلك أمل ؟ ما أدري ! لقد وقفت عن الكتابة حين بلغت هذه الجملة من الحديث ، لأنني وقفت عن التفكير ، بل وقفت عن الشعور ، وأحسست كأن عارضاً من الدهول قد عرض لي ، وكأن كل شيء من حولي يضطرب أشد الاضطراب ، وكأن أصواتاً من حولي ترتفع ، كأن الجو وتفعم الفضاء . وما أدري أبقيت على هذه الحال ساعة أو دقائق ؟ ولكنني رجعت إلى نفسي متعبة مكدودة ، لا أكاد أتمالك .

. ثم أخذ الهدوء يثوب إلى شيء فشيئاً والقوة تعود إلى قليلاً قليلاً ، وإذا أنا جالسة حيث كنت أنظر إليك ولا أكاد أراك . ثم أسأل نفسي عما أنا فيه ، أسألها عما كنت أفعل ، وعما عرض لي ، وعما أريد أن أفعل ، فلا أجد من نفسي إلا جواباً واحداً وهو أني مقبلة على أشياء خطيرة وأمور ذات بال .

١٨

أتصدقنى ، أيها الدفتر العزيز ؟ أما أنا فلا أكاد أصدق نفسى ، بل أنا لا أصدقها ، وإنما أنا فى ريب من أمرى واختلاط ، لا أدرى أعاقلة أنا أم مجنونة ؟ أحتفظة أنا بملكائى كلها كما عهدتها ثابتة هادئة منظمة لا تقدم إلا على بصيرة ولا تدبر إلا على روية وتفكير ، بعيدة كل البعد عن هذه الأوهام التى تعبت بعقول الدهماء ، وتؤثر فى نفوس الشذاذ من الناس ؟ ما أدرى ! ! ولكنى أنكر نفسى أشد الانكار . منذ أيام تخطر لى الخواطر الغريبة فأذودها ، هازئة بها فتعاودنى فأعاود ذيادها ، ثم يتصل الليل بالنهار فإذا الخواطر التى كانت تعرض لى أثناء اليقظة تلح علىّ أثناء النوم . وإذا أنا أفيق مدعورة مرة ومرتابة مرة أخرى . كل ذلك وأنا أتهم نفسى وأنكرها . وألوم نفسى وأعنفها ، وأزعم أن الحب قد أخرجنى عن طورى ، وأن الغيرة قد أفقدتنى رشدى ، وأذهلتنى عن صوابى ، وربما تساءلت : أليس من الخير أن أعود إلى أبوى فأقيم معهما أسابيع لأستريح من الحب كما عدت إليهما فأقيمت معهما أسابيع لأستريح من الهجر ؟ وأكاد أرجح هذا الميل ، وأكاد أعزم على الرحلة ، وأكاد أفر من نفسى ، ولكن النذر تبغنى فأقيم .

قلت لك : إنك لن تصدقني ، وإنى لا أصدق نفسي ، ولكنى لم أنبئك بهذه الأنباء التى أعتقد أنك سترفضها وتأتى أن تؤمن لها . لم أنبئك بهذه الأنباء لأنى أكبرها وأنكرها ، وأستحى أن أقصها عليك ، ولأنى أجد كثيراً من المشقة والجهد فى جمع نفسى هذه المشردة ، وتأليف خواطرى هذه المتفرقة ، وصوغ هذه الأنباء الغريبة فى جمل قريبة أستطيع أن ألقها إليك . ومع ذلك فلأجتهد ولأجاهد فما ينبغى أن أخفى عليك سرّاً ، وما ينبغى أن نفرق ولما أظهرت على هذه الأحداث الجسم .

ما كنت أظن أن حرصى على حب مكسيم سينتهى بى إلى هذا الطور الذى انتهيت إليه منذ شهرين من الإشفاق والخوف ومن التطير والخضوع للأوهام .

ولكنى قد انتهيت إلى هذا الطور سواء أردت ذلك أم لم أرد ، وقد جعلت ألتمس التأويل والتعليل لكل كلمة من كلمات زوجى ، ولكل نبرة من نبرات صوته ، ولكل حركة من حركاته ، ولكل هذه المظاهر التى تختلف على وجوه الناس حين يبتسمون ويعبسون ، وحين يهدأون ويضطربون ، وأسرفت فى ذلك حتى ضقت به ، وحتى جعلت أروض نفسى على أن أنفق الأوقات القصيرة غير مفكرة فى مكسيم ، ولا حافلة به فلا أبلغ من ذلك شيئاً . وقد ألقى الشيطان فى روعى أنى مدينة لغبية لورنس بنشاط حيناً بعد فتوره ، فأحاول أن أدفع وسوسة

الشیطان هذه عن نفسی ، فأوفق حيناً ثم يعود إلى هذا الوسواس ملحاً مسرفاً في الإلحاح وإذا أنا أفكر في لورنس كلما فكرت في زوجي . وأكاد أسأل نفسی ، كلما وقعت من نفسی أحاديث مكسيم وأعماله موقع الإعجاب والحب : ما عسى أن يكون موقع هذه الأحاديث والأعمال من نفس لورنس لو أنها شهدتها أو ظهرت عليها ؟ وإني لضيقة باقتحام لورنس علينا حياتنا وقيامها بين زوجي وبينی في كل لحظة ، وإذا صورة أخرى تقتحم علينا هذه الحياة ، وتقوم بيننا مع صورة لورنس وهي صورة زوجها الفقيد الشهيد . فقد أخذت هذه الصورة تراءى لي بين حين وحين ، وأخذت أنكر إلامها بي وظهورها لي ، ولكنها أخذت تكثر من الزيادة وتطيل المقام ، وأكبر الظن أني أنا التي دعت هذه الصورة لكثرة ما فكرت في لورنس ، ولكثرة ما أعجبت بوفائها لزوجها ، ولكثرة ما أعدت على نفسی كتابها الذي أنبأت فيه مكسيم بعزمها على الاغتراب .

ولكنی أفیق ذات ليلة مدعورة أشد الذعر ، قد ملئ قلبي روعاً ، واستأثر الهلع بنفسي حتى تصيب جسمی كله عرقاً ، وقد كان أول خاطر خطر لي حين انجلت عني سحائب هذا الذعر أنها خواطر اليقظة قد ألحت عليّ في النوم . وقد جعلت أرد الأمن إلى نفسي قليلاً قليلاً ، ولكنه لا يعود إلا ليزول . فقد رأيت فيما يرى النائم صورة

ذلك الزوج الفقيد تدعوني بالإشارة فامتنع عليها ، فتلح في الإشارة وألح في الامتناع فتضيف الصوت إلى الإشارة ، فأسمع زوج لورنس يدعوني بصوت هادئ ولفظ واضح صريح : إلى ، إلى ، فإن مكانك ليس بين هذين الآئمين ولكنه إلى جانبي أنا المظلوم . وأفيق مذعورة لا أدري أأيقظني الذعر أم أيقظني الصوت الذي سمعته ؟ وأحاول أن أخلص من هذه الصورة ، ولكنها تملأ عيني والغرفة مظلمة . وأحاول أن أخلص من هذا الصوت ولكنه يملأ أذني والليل من حولي شديد الهدوء ، فأعتمد إلى النور فأذود به الصورة ثم أنهض من سريري ، وأضطرب في غرفتي ، وأحدث من الحركات ما أذود به الصوت عن أذني ، ولكني لا أعود إلى الظلمة إلا عادت الصورة إلى عيني ، ولا أعود إلى السكون إلا عاد الصوت إلى أذني ، حتى ظننت بنفسي الظنون ، وأشفقت على عقلي من أعراض الخبال ، ولم ينقذني من هذه الآلام المتصلة والأخطار المحدقة إلا ضوء الصبح حين أقبل بعد انتظار طويل .

قل ، أيها الدفتر العزيز ، ما قلته لنفسى من أن هذا عرض من أعراض المرض ، ومظهر من مظاهر ضعف الأعصاب ، واضطراب المزاج ، ونتيجة من نتائج التفكير المتصل في حب مكسيم والإشفاق من لورنس ، فقد قلت هذا كله لنفسى وأستيقنته ، وفكرت في أن أطب له بالرحلة إلى أبوى أو بالإبعاد في السفر . وما يمنعني أن ألم بباريس

١٠٣

فألهو بجياتها الصاخبة المتنوعة ، عن هذه الحياة الهادئة المتشابهة في الأقاليم .
ولكن ما رأيك في أنى لست مريضة ولا ضعيفة الأعصاب ،
ولا مضطربة المزاج ؟ ما رأيك في أن هذه الصورة لم تخذعنى ؟ وفى
أن هذا الصوت لم يكذبنى وفى أن زوج لورنس قد أنبأنى بالحق الذى
لا شك فيه ؟ فقد عادت لورنس من سفرها البعيد ، وتورطت فى
الإثم الذى فرت منه ، ولم تستطع أن تمضى فى المقاومة .

عادت لورنس لا إلى هذه المدينة التى تقيم فيها ، ولكن إلى
مدينة أخرى ليس بيننا وبينها إلا ساعتان فى القطار . عادت لورنس
واتصلت بمكسيم ، واتصلت الزيارات بينهما ، وكان ما خفت أن يكون .
أتصدقنى ، أيها الدفتر العزيز ؟ إنى لا أصدق نفسى ، وما تعودت
من قبل أن أصدق أحلام الليل ، ولكن لورنس قد عادت ، ومكسيم
قد عاد إليها ، ولكن قلب زوجى لم يعد خالصاً لى ، ولكن الأمر بين
زوجى وبينى لم يقف عند هذا الحد ، فقد عرف الناس من أمره
ما كنت أجهل ، ولم أعرف حقيقة هذا الأمر إلا بعد أن عرفه
الناس ، وقد عرضنى ما ظهر من أمره إلى أكثر من ألم المرأة التى
يخونها زوجها . عرضنى لطمع الطامعين ، وأغرى بى الذين يتتهزون
الفرص من الأصدقاء الأوفياء . عرضنى لألم المرأة التى تهان فى حبها ،
ونخزى المرأة التى تهان فى كرامتها ، أأصدق أحلام الليل أم أكذبها ؟
أستجيب لهذه الدعوة التى وجهها لى زوج لورنس أم أمتنع عليها ؟

ما أشد شوقى أيتها الصديق العزيزة لورنس ، وددت لو استطعت أن أطير إليك لأضمك بين ذراعى ، ولأقبلك قبلات تنقل إلى قلبك بعض ما فى قلبى من حب ووفاء ، ومن إكبار وإجلال ، ومن شكر للصنيعة واعتراف بالجميل ، ولأذرف على كتفك دموعاً تصور الحزن لفراقك ، والفرح ببقائك . والإكبار لتضحيتك ؛ والشكر لبعض فضلك ، والأسى لما احتملت من حرمان ، والإعجاب بما أظهرت من شجاعة وحسن احتمال ، وكنت خليقة أن أفعل هذا كله لو أن نبأ عودتك إلى الوطن قد ألقى إلى ساذجاً يسيراً كما تلقى الأنباء ، فقد كنت مدينة لك بحبى ، وكنت مدينة لك بسعادتى ، وكنت مدينة لك بحياتى . وما أدرى أفهمتنى كما أنا أم لم تفهمينى ، ولكن المحقق أنى بعد أن أحبيت مكسبم وبلوت السعادة بحبه لا أتصور الحياة بدون هذا الحب ، ولا أطيق لها احتمالاً .

ألعلك عرفت هذا كله وقدرته حين هاجرت من أرض الوطن ، وضحيته بلذاتك وآمالك ، وبعواطفك وشعورك ضناً بى على اليأس ، وحرصاً على أن أتجنب آثاره الويلة وعواقبه المهلكة . أم لعلك إنما هاجرت من أرض الوطن ضناً بنفسك على الإثم وارتفاعاً بها عن النقيصة

وفاراً من الحياة للأحياء والأموات ؟ هذه الحياة التي لا تليق بالنفس
الكريمة ، ولا تلائم القلب الذكي النقي . أم لعلك قدرت الأمرين
جميعاً فنصحت لي ونصحت لنفسك ، وأبقيت على حياتي ، وأبقيت
على كرامتك ، حين أزمعت ذلك الرحيل . مهما يكن من شيء فإنك
قد منحني الحياة مرة ثانية حين تركت لي قلب مكسّم وجهه . فأنا
مدينة لك بهذه الحياة ، ولو قد اطلعت على قلبي من مهاجرك ذلك
البعيد لرأيت أني كنت قد اتخذت لك فيه معبداً خاصاً أسميته معبد
الوفاء ، ولعلمت أني كلما أحسست لذة وغبطة أو سعادة أو ألماً
أو حسرة ، وما أكثر ما كنت أحس هذا كله ، قدمت إليك بعض
ما كنت أجده قرباناً لوفائك وعرفاناً لجميلك ، وإيماناً بما لك على
من فضل ليس إلى وصفه ولا إلى تقديره من سبيل . ليت النبأ الذي
حمل إلى عودتك إلى أرض الوطن ألقى إلى سمحاً سهلاً نقيّاً . إذن
لأسرعت إليك ولأدبت بين يديك بعض ما كان ينبغي أن أؤدى من
الشكر والوفاء ، ولكنني عرفت عودتك مصادفة . وأى مصادفة ! إنني
لأذكرها فتقف نفسي عن التفكير ، ويقف قلبي عن الشعور ،
ويقف قلبي عن الكتابة وتنحدر من عيني دموع غزيرة حارة ،
ولكنها لا تخفف هذه النار المضطربة بين جوانحي نار اليأس والحسرة
ونخبة الأمل وكذب الظنون .

هذا المعبد الذي كنت أقمته في قلبي قد تهدم ، وهذه الصورة

الحميلة التي رسمتها لنفسك في أعماق ضميري قد درسها المسخ والتشويه ،
واستحالت إلى صورة مخيفة بشعة ، تروعنى وتملأ نفسي هلعاً
وجزعاً . . .

ماذا ؟ أيستطيع الناس أن يرتفعوا من البر والطهر والنقاء إلى
حيث ارتفعت يا لورنس ، ثم يهبطوا من الخزي والإثم والعقوب إلى
حيث هبطت يا لورنس ؟ أشهد أن الإنسان مستقر المتناقضات ،
وأن الشهوة أقوى من العقل وأن الشر أعظم على نفوس الناس سلطاناً
من الخير . أتعرفين كيف انتهى إلى نأ عودتك ! في حديث من
هذه الأحاديث المألوفة التي تجرى بين الأصدقاء في غير تكلف لها
ولا احتفال بها ؟

كنا نسمر في بيتنا كما تعودنا أن نفعل مع جماعة من الأصدقاء
الذين تعرفينهم ، وكنا نتجاذب الحوار في موضوعات مختلفة كما
تعودنا أن نفعل ، فأنتهينا إلى الحب وأنتهينا إلى الوفاء ، وأفضنا في
ذلك حتى عرض مكسيم لعادة نقرها بعض الجماعات المتحضرة ؛
عادة تعدد الزوجات .

وإذا مكسيم يدافع عن هذه العادة دفاعاً حاراً ، ويدود عنها
زيادةً عنيفاً ، ويزعم أن قلب الإنسان أوسع من أن يضيق بحب
شخصين ، أو حب أشخاص . والأصدقاء من حولنا يجادلونه في
ذلك جدالاً عنيفاً ، وأنا أسمع ذلك ضاحكة منه أول الأمر ثم منكرة

للغلو فيه ، ثم دهشة لهذه الحماسة التي يظهرها مكسيم . ثم متنبهة لما كان يردّ به فيليب من ألفاظ لا تخلو من تلميح وتعريض .

ثم نتفرق ، وقد وقر في نفسى من هذا الحوار شيء لم يخل من تنغيص ، لما كان بينى وبين مكسيم من صفو . وأكاد أنسى هذا الحوار وأعرض عنه بعد أيام . ولكن فيليب الذى يتردد علينا ، ويكثر التردد ، والذى يتوعد إلى ويسرف في التودد ، يزورنى ذات يوم ، وقد عرف أن مكسيم غائب في بعض أسفاره القصيرة التي كثرت واتصلت في هذه الأيام ، فنأخذ في أطراف من الحديث وما أسرع ما يبلغ بمحادثته نجوى الحب التي أردّه عنها كلما ألمّ بها ساخرة منه في رفق ومودة ، ولكنه في هذه المرة لم يرتد ، ولم يثب إلى وقاره ، ورعاية ما كان يرعى من الحق ، وإنما تمرد واحتد وثار نائره ، واندفع في ألفاظ مختلطة ، عرفت منها بعد دقائق كل شيء .

عرفت منها أن الرسائل اتصلت بينك وبين مكسيم بعد أن عجزت عن احتمال الفراق الطويل ، وعرفت منها عودتك إلى فرنسا واستمرارك في جرينوبل ، واستئناف الأمر بينك وبين زوجى ، وعرفت منها أمر هذه الأسفار القصيرة المتصلة التي كانت تدعو إليها الأعمال فيما كان ينبئ ، والتي إنما كان يدعو إليها الحب وما استتبع من لهفة بعد طول الفراق ، ومن ظمأ بعد طول الحرمان .

ولله قلب فيليب هذا الفتى البائس المسكين ، الذى تاب إلى رشده

بعد أن فضح السر وخان الأمانة ، وأظهرنى على ما كنت أجهل ،
فقد تولى كثيرًا يائسًا مستخذيًا ، ثم انقطعت عني أخباره . أما أنا
فقد ثبت لهذه الصدمة كما ثبت لصدمة أخرى تعرفينها . فلم أثر ولم
أجزع ، ولم أصل إلى الأزمة كما لم أصل إليها من قبل ، ولكنى لم
أقاوم حب الاستطلاع بل لم أفكر فى المقاومة وإنما وازنت بين خيانة
مكسيم لحبنا وبين ما سأقدم عليه حين أخونه فى ما يحفظ من الرسائل .
وما هى إلا أن أقنع بأن هذه الرسائل من حقى .

ويقبل الليل وتهدأ الحركة ، وتستقر الأشياء ، وأذهب أنا إلى
مكتب مكسيم ، فأنتقى الليل فيه مع رسائلك يا لورنس ، على حين
كان يتفق مكسيم ليله فى حبك فى غرفة من الغرف فى مدينة جرينوبل .
ولست أدرى كيف أصف ما كنت أجده من شعور حين كنت أقرأ
رسائلك الرائعة وحين كنت أتصور الخاتمة التى انتهى إليها هذا الجهاد
المجيد ؟ ولكنه لم يكن شعور ثورة ولا غضب ولم يكن شعور سحق
عليك أو لوم لك ، وإنما كان شعورًا حزينًا هادئًا . مطمئنًا .
وكان شعورًا حزينًا يائسًا مصممًا مع ذلك . وكان فيه كثير من
الرحمة لك ، والاعتذار عنك ، والإشفاق على طفلنا هذا البائس
التعس الذى لن يستقبل الحياة كما كنت أتمنى أن يستقبلها سعيدًا
بين أبوين سعيدين . وأنا أكتب إليك الآن ، ولست أدرى لماذا أكتب
إليك ! ولكنى دفعت إلى ذلك دفعًا .

١٠٩

أكتب إليك ، وقد ارتفع الضحى ، وأظن مكسيم يوشك أن
يودعك ، فقد ينبغي أن يبلغنا نحو الساعة الثانية . وقد يصل إليك
هذا الكتاب مساء اليوم ، أو صباح الغد ، فاقرئيه واذكري كاتبته !
واعلمي أنها لا تضمر لك بغضاً ولا تحفظ لك موجدة ، وإنما تسدى
إليك الشكر ، وتهدي إليك التحية وتتمنى لك ما لم يتح لها من السعادة ،
وما لم يقدر لها من النعيم .

٢٠

كلا لم أكن صادقة أيها الدفتر العزيز حين زعمت للورنس أنى
لست ثائرة ولا محنقة ، ففيم كتبت إليها هذا الكتاب ؟ ولم أرسلته
فى غير تردد . ودون أن أسأل نفى عما يمكن أن يكون له من عاقبة ،
وعما يمكن أن يحدث من أثر فى نفس هذه الصديق البائسة ، وفى نفس
مكسيم الذى سيظهر على كل شىء ؟

لم أكن صادقة فيما زعمت ، وإن كنت صادقة فيما عملت . فقد
استجبت لغريزى ، وأذعنت لعواطفى ، ولم أفكر ولم أرو ، ولو استطعت
الآن لاسترجعت هذا الكتاب ، ولتركت هذين الآثمين البائسين
ينعمان أو يشقيان بما قضى عليهما من إثم وبؤس . وما عسى أن
يتفعلى هذا الكتاب ؟ أترأى يرد إلى هذا الحب الضائع الذى لا سبيل
إلى أن يعود ؟ واحسرتاه إنى لأفكر وأقدر كما يفكر الناس ويقدر
برغم ما أشعر به فى أعماق نفسى من انقطاع الصلة بينى وبين الناس
ومن أنى قد انتقلت إلى عالم آخر يجب أن أفكر فيه على نحو جديد
بل يجب أن أستريح فيه من التفكير .

ما أشد شوقى إليك أيتها الأم العزيزة . ما أشد شوقى إليك أيها
الأب الرحيم ، ما أشد شوقى إليك أيها الأخ الكريم . لقد كنتم أجدر

الناس بلقائى وشفائى من هذا الذى أشقى به ، ولا أعرف كيف أسميه ، ولكنى لا أستطيع أن أسعى إليكم ، ولا أن أبلغكم ، ولا أن أحملك من أنقلى أكثر مما احتملت إلى الآن .

وأنت أيها الدفتر العزيز ، ما أشد صبرك على ، واحتمالك لى ، ومواساتك لهذا القلب الكسير . أترانى سأعرض عنك كما عودت الأعراض عنك ، ثم أعود إليك كما تعودت العودة إليك ، مشغوفة بك لاجئة إليك مستخدية منك ؟

وداعاً على كل حال . ومكسيم . . . ؟ كلا ، ما ينبغي أن أفكر فى مكسيم . وأنت أيها الطفل العزيز ؟ كلا ، ما ينبغي أن أفكر فىك الآن ، وإن كنت لا أجد إلى الانصراف عنك سيلاً . . .

وأصبح الناس ذات يوم وقد قرعوا فى صحف الإقليم نعى سيدتين أهدت كل واحدة منهما نفسها إلى الموت ، وجعل الناس فى المدينة إذا لقي بعضهم بعضاً يلمون بهذا النبأ ، ويقول بعضهم لبعض يا عجباً كأنما كانتا على ميعاد .

الحب اليائس

قال القسيس وهو يضحك للراهبة وهي تبكى : على رسلك أيتها الأخت العزيزة فإن الله يكره الإسراف لعباده حتى في حبه والإنابة إليه ، واحذرى أن يكون إغراقك في هذا الندم وإلحاقك في هذا الحزن الذى يوشك أن ينتهى بك إلى اليأس من روح الله الذى لا ييأس منه المؤمنون ، احذرى أن يكون هذا مظنة للريبة ، وثقى - وأنت واثقة طبعاً - بأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فاجتهدى فى ألا يظهر الله منك على سر تكرهين أن يظهر عليه .

وكان ضحك القسيس هادئاً حتى إذا انتهى إلى هذه الجملة قوى وظهر فيه العنف حتى وجمت له الراهبة لحظة ، ثم ثابت إلى نفسها وجففت دمعها ونهضت متثاقلة ، وخرجت صامتة لم تحى الشيخ ولم تقل له حرفاً ، وإنما مضت أمامها لا تلوى على شيء كأنما أوديت فى ضميرها ، فلم تر دفعاً لهذا الأذى إلا أن تفر من مصدره فراراً .

وما أظنك فهمت من هذا الحديث كله شيئاً ، وأى غرابة فى ذلك ؟ فأنت لم توكل بحل الألغاز ولا بتأويل المشكلات ، وإنما أنت قارئ أو قارئة - أستغفر الله - قارئة أو قارئ ، يعرض عليه الفصل ، فإن استقبله فاهماً لأوله مضى فيه حتى يبلغ آخره ، وإن

أعياء أول ما يستقبل منه تجلد إن كان من أولى العزم ومضى في القراءة ، لعله إن تقدم بعض الشيء كشفت عنه الحجب ، وذلت له الصعاب ، وفهم ما لم يكن يفهم ، وإن لم يكن من أولى العزم أعرض عن القراءة وألقى الصحيفة أو الكتاب إلقاء .

وأنا أرجو لك أن تكون جلدًا صبوراً وأن تمضى في القراءة شيئاً فلعلك تفهم عاقبة هذه الألغاز والرموز . والحق أنى لم أكن لألغز ولا لأوثر الرمز والإيماء ، ولا لأقدم في أول هذا الفصل ما حقه أن يكون في آخره ، لكن الكتاب المحدثين يذهبون هذا المذهب حين يريدون أن يقصوا عليك أقصوصة لها حظ من قيمة ، أو نصيب من طرافة ، وهم فيما يظهر إنما يذهبون هذا المذهب تشويقاً للقارئ وإيقاظاً لحبه الاستطلاع وميله إلى تعرف الأنباء .

وأنا أظن أن القصة التي أريد أن أقصها عليك خليقة أن أشوقك إليها وأنبهك إلى دقائقها ، ومن هنا ذهبت في أولها مذهب الكتاب المحدثين . ومن يدرى ؟ لعل لم أفعل ذلك إلا تقليدًا لهم واقتفاء لآثارهم ، وتكلفاً لبعض فنهم الطريف . وسواء أكان هذا أم ذاك فقد أفرغ بعد كلام قليل أو كثير من هذه المقدمات ، وانتهى بك إلى القصة نفسها لترى أنت أخليقة هي بالعناية ، أم ليس لها خطر ولا شأن . ولا ينبغي أن تسألنى فيم هذه المقدمات ، أو فيم هذا التعليل والتحليل ، والإبعاد عن الموضوع والتكلف الذى يزهد النفس ويثقل على القلب !

لا تسألنى هذا السؤال فإن جوابه حاضر ، وهو أنى أريد أن أذهب فى هذا أيضاً مذهب جماعة من الكتاب المحدثين الذين يريدون أن يظهروك لا على القصة التى يحبون أن يقصوها عليك فحسب ، بل على مذهبهم فى القصص وطريقتهم فى التفكير أثناء القصص ، يريدون أن يظهروك على أنفسهم حين يتحدثون إليك ، لتراها واضحة جلية ، ولترى أنهم يصدقونك ويكبرونك كل الإكبار ، فلا يعشون بك ولا يتكلفون لك ، ولا يكذبون عليك .

وأنا أعترف بأنى لا أحدثك عن هذه الراهبة التى كانت تبكى بين يدى القسيس ، والتى كان القسيس يضحك لها ليردها إلى الأمن والطمأنينة ، فأساءت به الظن وقدرت أنه يضحك منها ويهزأ بها ، فانصرفت عنه كثيراً محزونة الفؤاد يكاد يملأ نفسها اليأس .

لم أحدثك عن هذه الراهبة البائسة السعيدة ، إلا لأن حديثها أعجبنى وراقى وأثر فى نفسى أبلغ التأثير ، وإياك أن تظن أنه حديث مصطنع قد ابتكره الخيال ابتكاراً ، فإو كان الأمر خيالياً لأنباتك بذلك ، ولكنه حديث كله حق وصدق . ولا لك من أن تقبل منى ذلك ، لا لشيء إلا لأنى أنبتك به والأصل فى الكاتب أنه صديق القارئ ، ينصح له ولا ينبئه إلا بالحق ، أليس كذلك ؟

كانت هذه الراهبة فى الوقت الذى بكت فيه بين يدى القسيس وضحك لها فيه ، أو ضحك منها القسيس ، قد بلغت الخمسين

من عمرها أو كادت تبلغها ، وكانت قد أنفقت في الدير أعواماً طويلاً لا تقل عن ربع قرن ، متكلفة ما تتكلفه الراهبات في صدق واقتناع وإيمان من حياة الزهد والنسك ، ومن خشونة العيش وتكلف الجهد الثقيل ، وكانت قد خصصت نفسها بعد أعوامها الأولى في الدير لخدمة الفقراء والبائسين ، وللعناية بالمرضى والذين مسهم الضر وألح عليهم الشقاء . وكانت تجد فيما تعاني من ذلك لذة لا تعدلها لذة ، وسعادة نفسية لا تبلغها سعادة ، وكانت كلما بلغ منها الجهد وثقل عليها العناء ازداد نصيبها من الغبطة وحظها من الرضى . ولم تكن تؤثر من المرضى وأصحاب العلل إلا أسوأهم حالاً ، وأخبثهم علة ، وأقبحهم مرضاً ، لتبتلى نفسها في العناية بهم بأشد أنواع الابتلاء . ولترى الألم الإنسانى في أقبح صورته وأبشعها ، ولتروض نفسها على شر ما تراض عليه النفوس ، ولتثبت في قلبها أن الحياة الدنيا لعب وهو وباطل وآخر الأمر .

ومع هذا كله فقد كانت على حظ من جمال أدركه شيء من الذبول والدواء ، ولكنه لم يستطع أن يغير من معاملة ، ولا أن يمحو مظاهره على ما كانت تحرص عليه هذه الراهبة من أن ترد نفسها إلى شر ما تستطيع امرأة أن تبلغه من سوء الحال . ومصدر ذلك أن هذه الراهبة كانت من بيت عظيم بعيد النسب في الشرف الفرنسى ، رفيع المكانة في الحياة الفرنسية منذ قرون ، توارث أهله المجد والثروة

والرفعة والنعمة على اختلاف العصور والظروف ، وألمت بهم المحن فاحتملوها كراماً وخرجوا منها ظافرين ، وما أكثر ما كانوا يمتحنون في مكانتهم وثروتهم ، ثم يخرجون من المحن محتفظين بالمكانة والثروة جميعاً .

وكانت راهبتنا في أول عمرها صبية رائعة الجمال ، قوية الحس ، دقيقة الشعور ، زكية القلب مرهفة العقل ، وكانت فتنة أبويها . كانا يؤثرانها على أخيها الذي كان يشغف بحياة العنف والمخاطرة ، على حين لم تكن هي تصبو إلا إلى حياة الحب والعطف والحنان . ذهب أخوها مذهب أمثاله من شبان الأشراف ، فطلب العلم ثم اتصل بمدارس الحرب ، ثم انتظم في الجيش ثم كانت الحرب الكبرى ، فكان في مقدمة هذا الشباب الذي استقبل العدو . وقد اتخذ للموت في سبيل الوطن زينة الأشراف فلم يعد إلى أهله ولم يطل انتظارهم لأنبائه ، وإنما انتهى إليهم نعيه في الأشهر الأولى لهذه الحرب . ولما انتهى نعيه إلى أبويه كان ليداناً لهما بأن حظهما من هذه الحياة قد انقضى ، وعملهما فيها قد انتهى ، فقد كان هذا الفتى بقية آمالهما بعد أن ذهبت أخته إلى الدير ذات يوم فلم تعد منه إليهما ، لسبب لم يعرفاه ولم يستطيعا أن يهتديا إليه ، ومع أنهما قد جهدا في صرف الفتاة عن الدير أقصى الجهد ، وبذلا فيه ما يستطيعان وما لا يستطيعان من السعي ، واستعاننا عليه بالأصدقاء من خاصتهما وبذوى المكانة والمترلة

من معارفهما ، فإن الفتاة لم تستجب لهما ولم تسمع لما كانا يلقيان إليها من حديث ، ولم ترق لما كانا يسفحان من دموع !

ثم تنقضى سنة المران والامتحان والاستعداد وتدنو الساعة التي تهب الفتاة فيها نفسها لله هبة حازمة قاطعة لا رجعة فيها ولا انصراف عنها ، وتعود الأسرة إلى ابنتها ضارعة مستعطفة ملحة في الضراعة والاستعطاف ، فلا تزداد الفتاة إلا إباء وإصراراً ، ثم ينفذ القضاء وتعطى الكلمة الحاسمة ، وتصبح الفتاة وقد انقطعت الأسباب بينها وبين ما وراء الدير ، ومن وراءه من الحياة والأحياء . ثم تنقطع الصلة بين الفتاة وبين أسرتها فجأة ، وتجهل الأسرة من أمر ابنتها كل شيء ، قد نقلت من ديرها الذي كانت فيه إلى دير غير معروف ، ثم أخذت الأدير تتقاذفها في أرض الوطن ، وفي أرض الغربية في القارة الأوروبية ، وفي الشرق القريب وفي الشرق البعيد ، وفي تلك الجزر النائية التي تكثر فيها العلل المهلكة والأوبئة القليرة ، ثم ترد الراهبة في عام من الأعوام إلى فرنسا ، لتعمل فيها مثلما كانت تعمل في جميع المواطن التي تقاذفتها أعواماً وأعواماً ، ولكن كتجد في وطنها بعض الراحة من هذا العناء الطويل الثقيل الذي احتملته ، ومن هذا الجهد العنيف المهلك الذي بذلته . وكانت الراهبة قد استحققت هذه الراحة لأنها كانت قد أبليت فأحسن البلاء . وحمل أنت هذه الكلمات ما تستطيع أن تحملها من المعنى ، فلن تؤدي إلا بعض ما أريد أن أقول ، لأني

مضطر إلى أن أوجز ، راغب عن الإطالة كل الرغبة ! .
 عادت الراهبة إلى وطنها لإذن لتعمل فيه وتستريح . وهذا مريض
 سيء الحال قد أدركه السل وانتهى به إلى غايته ، وهو مشرف على
 الموت ، وهو فقير بائس ، ينفق ما يبق من أيامه البائسة في بيت حقير
 قدر ، وهذه الراهبة تمرضه وتقوم بأمره ، وتعيّنه بما تمنحه من الرحمة
 والعطف والحنان والعناية المادية ، على أن يخطو هذه الخطوات القليلة
 الضئيلة التي تلقى بين ذراعى الموت ، وتستنقذه من مخالب العلة
 والمريض . وقد خطا المريض أكثر هذه الخطوات ، ولم يبق بينه وبين
 الراحة إلا سبب ضئيل ، ضئيل جداً ، تقطعه أيسر وطأة للمرض ،
 فليدع القسيس إذن ليهيئ هذا المريض للقاء ربه .

وهذا القسيس يقبل ، وهذه الراهبة تفتح له الباب وتلقى عليه
 النظرة الأولى ، وإذا قلبها يخفق خفقة تكاد أن تهوى بها إلى الأرض ،
 لولا أن تملك البائسة نفسها وتعتمد على بعض الأثاث . وقد دخل القسيس
 فأدى واجبه ، وأبرأ المريض من آثامه وإن لم يبرئه من علته . ثم انصرف ،
 ولكن الراهبة تستوقفه عند الباب ، وتسأله في صوت خافت مرتجف ،
 ألم تعرفني يا أبت ؟ فيجيبها : كلا أيتها الأخت . من عسى أن
 تكوني ؟ فتقول : ومع ذلك فلم أكد أراك حتى عرفتك ، ولم أكد أسمع
 صوتك حتى انهدم له قلبي انهداماً ! فيسألها القسيس ملحاً : من تكونين ؟
 تجيبه : أنا فلانة بنت فلان وأخت فلان . قال القسيس وقد اضطرب

صوته اضطراباً يسيراً : « سلام عليك أيتها الأخت ، وبارك الله لك في حياتك وفي عملك » ثم انصرف مهرولا . ولما أمسى كان قد طلب إلى رئيسه أن ينقله إلى مدينة أخرى .

وعادت الرهبة إلى مريضها فأبلغته مأمنه ، حتى إذا انتهت مهمتها ذهبت إلى القسيس الشيخ ، الذى كان يضحك لها أو يضحك منها فى أول هذا الفصل ، تعترف له وتعتذر بين يديه : وتعلن إليه ندمها ، لأنها ذكرت بعد هذه الأعوام الطوال حباً قديماً استيأست من غايته ، فذهبت إلى الدبر وانقطعت لعبادة الله والبر بالبائسين . ونخيل إليها أنها قد انصرفت عن ذلك الحب الإنسانى : وتعزت عنه بهذا الحب الإلهى . ولكنها رأت فذكرت ، فعاودها الأسى ، فهى نادمة وهى مشفقة من الخطيئة . وهى تلح فى هذا الندم ، وتغرق فى هذا الإشفاق ، وتطلب إلى القسيس الشيخ أن يرد إلى قلبها الأمن ، وأن يستنقذ نفسها من هذا الخوف ، وأن يذود عنها هذه الصور المزعجة التى يثيرها الندم أمام عينيها ، والقسيس الشيخ لا يشفق عليها من ذكر هذا الحب القديم والحزن له والتأثر به ، فأى شئ فى هذا كله ؟ إنها امرأة ، إنها ابنة الإنسان ، والإنسان ضعيف . إنما يشفق عليها من إطالة الندم والإغراق فى التفكير ، فمن يدرى ؟ لعل إطالة الندم على بعض الخطيئة شر من الخطيئة نفسها ، لأنه استبقاء لها واحتفاظ بها ، وحينئذ إليها ، وادخار لهذا السبب الذى يصل بين الإنسان وبينها .

كان القسيس الشيخ رفيقاً بالراهبة ، ولكنها لم تفهم منه هذا الرفق ،
فلما انصرفت لم تفكر إلا في أن تطلب إلى رئيسها في الدير رحلة
بعيدة إلى جزيرة من تلك الجزر النائية التي يكثر فيها المجذومون ،
ويحتاج فيها المرضى إلى عناية الراهبات .

الحب المكروه

كانت تلم بالبيت ساعات في كل يوم فتملؤه بصوتها العذب ،
 ووجهها المشرق ، ونشاطها العجيب ، غناء وجمالاً وحياة . وكان
 صوتها في ذلك اليوم أكثر عذوبة ، وكان وجهها أعظم إشراقاً
 وابتهاجاً ، وكان نشاطها أشد حدة من كل يوم آخر ، حتى اضطرت
 إلى أن أسألها عن أمرها وشعرت بالحاجة إلى أن أثبتن مصدر هذا المرح
 الذى ملك نفسها وجسمها معاً . فقلت لها : « ما أرى إلا أنك
 أسعد منك فيما مضى من الأيام » . قالت وهى تضحك : « نعم
 يا سيدى وما يمنعنى أن أكون أسعد الناس ، وقد نجح ابنى فى امتحانه ،
 وظفرت بنى بالشهادة الابتدائية ، وربح زوجى ورقة لا بأس بها
 من أوراق النصيب » .

ولكنك لم تعرف هذه السيدة التى أحدثك عنها ، ويظهر أنى
 أنسيت أن أقدمها إليك كما يقولون ، فلأصلح هذا الخطأ ولأستدرك هذا
 النسيان . هى امرأة فرنسية من هؤلاء الخادومات اللاتي لا يقصرن
 خدمتهن على بيت واحد ، يلزمه ويقمن فيه ، وإنما يتنقلن بخدمتهن
 بين طائفة من البيوت يعملن فى كل واحد منها ساعات ويقتضين
 أجورهن آخر الأسبوع على الساعات ، لا على الأيام ، ولا على

الشهور . وهن يعملن في هذا البيت أو ذاك ما أحبين العمل فيه وما استقامت أمورهن مع صاحبتهم ، فإن ضيق به أو ضاق بهن تركته وعملن في بيت غيره . وما أكثر البيوت التي تحتاج إلى هؤلاء الخادقات تجد في استخدامهن اقتصاداً في النفقة وتوفيراً لما يحتاجن إليه من طعام ومسكن إن لزم البيت أو قصرن خدمتهن عليه . وهن يجدن في هذه الخدمة الموزعة على البيوت لذات مختلفة ويحسبن منها منافع شتى هي أربح لهن وأجدى عليهن ، يكسبن منها في الأسبوع ما يكسبنه في الشهر من الخدمة المقصورة على بيت واحد ، ويجدن في تنويع هذه البيوت لذة التنقل ، واختلاف العمل ، واختلاف الحديث ، واختلاف الناس الذين يكون إليهم الحديث ، واختلاف البوابات التي تكون الخدمة في بيوتهن ، واختلاف الشوارع والأحياء التي تقوم فيها البيوت أحياناً ، ولهن بعد ذلك حرية يحرصن عليها أشد الحرص فيما يحتاجن إليه من طعام وما يتخذن من سيرة في الحياة ، ولهن الليل بعد ذلك ينفقنه مع أزواجهن وأبنائهن أو مع أخلائهن إن لم يكن لهن أزواج ولا أبناء . وهن يعملن ما أحبين العمل ، ويكسبن ما أحبين الكسل ، وينقلن أشخاصهن من بيت إلى بيت ، وينقلن مع هذه الأشخاص ما في نفوسهن من لذة وألم ، ومن مروح وخمود ، ومن حزن وإتهاج . وينقلن أحاديث البيوت والأسر من دار إلى دار فينبئن هذه بأحاديث تلك ، وينبئن تلك بأحاديث هذه ، وينبئن البوابات

بأحاديث الناس جميعاً . ويكوناً على هذا النحو طبقة خاصة من النساء ما أرى إلا أنها تصلح موضوعاً قيماً لبحث اجتماعى نفيس .

وكانت مدام ليونتين هذه التى أتحدث عنها امرأة من إقليم بريطانيا الفرنسية ، قد بلغت الأربعين أو جاوزتها قليلاً ، ولكن من يراها لا يشك فى أنها لم تبلغ الثلاثين بعد . قصيرة القامة ، ولكنها معتدلة القد ، كثيرة الحركة سريعة ، كأنها النحلة لا تستقر ، مشرقة الوجه قوية اللحظ ، عذبة الحديث رشيقته ، لا يكاد لغوها ينقطع ، كما أن نشاطها لا يكاد يقف . وكان البيت هادئاً مطمئناً يستقبل الصباح فى سكون لا تكاد تحس فيه اليقظة فإذا دخلته استحال البيت كله إلى حركة ونشاط وغناء وحديث . وكانت خفيفة الروح لا يستثقل منها هذا الاضطراب العنيف الذى تدفع البيت إليه دفعاً ونغرة فيه إغراقاً ، وربما أحس أهل البيت شيئاً من الفراغ والضيق بالفراغ حين تم عملها ، وتلقى تحيتها وتمضى مسرعة لتستأنف عملاً جديداً فى بيت آخر .

وقد اتصل الحديث بينها وبينى فى ذلك اليوم الذى لفتنى إليها فيه نشاطها غير المألوف : فعرفت أنها لم تكن خادماً ماهرة ، ولا امرأة جميلة ، ولا مغنية بارعة ، ولا متحدثة لا يشق لها غبار ، وإنما كانت هذا كله ، وكانت شيئاً أكثر من هذا كله . كانت فيلسوفة ، وفيلسوفة بأوسع معانى الكلمة ، لا بأدق هذه المعانى ، فهى لم تكن

تحسن المنطق وعلم النفس ، ولا تجيد الأخلاق وما بعد الطبيعة ، وماذا تصنع بهذه الثروة التي يفنى الفلاسفة فيها أعمارهم ، إنما كانت تفلسف في الحياة الواقعة وفيما يملأ هذه الحياة الواقعة من الأحداث . وكانت تفلسف في حياتها الخاصة فتحسن الفلسفة ، والحق أن حياتها الخاصة كانت خليقة بالروية والتفكير . وأهم ما كان يعينها من حياتها هي هذه الصلة التي كانت بينها وبين زوجها ، فهي كانت تحبه ولكنها تحبه كارهة له ، خائفة منه أشد الخوف ، وقد ترى أنت وقد أرى أنا في هذا الكلام تناقضاً وفساداً ، ولكن مصير هذا في أكبر الظن أننا لا نحسن الفلسفة كما كانت تحسنها مدام ليونتين .

فهي كانت ترى - ويظهر أنها لم تكن مخطئة - أن الحب يكون مع البغض ، وأن الأمن يكون مع الخوف ، وأن الافتتان يكون مع الاشتزاز ، وأن السعادة بعد هذا كله تكون مع الشقاء . وهي كانت تعلن هذا كله ، وتقيم من نفسها ومن حياتها الدليل عليه ، وهي كانت تقنع الناس وتقنعني أنا ، فإذا لم أستطع إقناعك بما كانت تقنعني به ، فصدر ذلك أني لم أحسن النقل عنها ولا الإعراب عما كانت تقول لأنني لا أجد مثل ما تجد ولا أحس مثل ما تحس . ولن يحسن المترجم فنه فيما يظهر إلا إذا استعار شخصية من يترجم عنه ، فخلطها بشخصيته خطأ ، أو مزجها بشخصيته مزجاً كما يقول أصحاب الكيمياء .

نشأت مدام ليونتين في قرية ساحلية من قرى المحيط ، وكانت نفسها مستوحشة كالبيئة التي نشأت فيها بين هذا المحيط المصطخب دائماً ، وهذه الصخور المنعزلة الشاهقة ، وفي هذه الحياة التي لا تخلو من خشونة وشظف . وكانت كغيرها من الفتيات الحسان وغير الحسان ، تنظر إلى الشباب وتداعب الأحلام حين تنظر إلى الشباب ، وكان الشباب ينظرون إليها وإلى غيرها من الفتيات أمثالها فيداعبون الأحلام وغير الأحلام ، ولعلها قد أطالت النظر إلى فتى بعينه ، ولعلها فكرت فيه فأطالت التفكير ، ولعلها عرضت إليه غير مرة ثم لم تستطع أن تدنو منه ولا أن تتحدث إليه ، ولعلها كانت تنتظر أن يلتق إليها النظرة الأولى وأن يدعوها إلى الرقص مساء السبت أو مساء الأحد ، وأن يأخذ معها في بعض الحديث .

ولكن الغريب أن هذا الفتى أو غيره من الذين كانوا يمثلون أحلام الفتاة وآمالها لم يعرض لها ولم يسع إليها ، ولعله كان ينتظر الوقت الملائم والفرصة السانحة ، فسبقه إلى هذا الوقت وانتهر من دونه هذه الفرصة فتى آخر ليس بينه وبين أحلام الفتاة وآمالها صلة ولا سبب ، لا يروقها منظره ، ولا يعجبها حديثه ، ولا تميل إلى الرقص معه . ولعلها إن رآته كرهت الدنو منه وآثرت الانصراف عنه ، ولعلها إن رآته أشفقت أن يدنو منها أو يبسم لها أو يلتق إليها بالا أو يرى إليها بلحظ أو لفظ ، ولكنه مع ذلك أقبل عليها واضطرها إلى أن تراه ،

وتسمع له ، وترفع بصرها إليه ، وتدعن الحديثه الذى كان يلقيه إليها ، كما يلقي الأمر الحازم إلى المدعن المطيع .
 دعاها فنفرت ، فألح فى الدعاء ، فاضطرت إلى أن تستجيب ، وأحب أن يداعبها فجمحت ، ولكنه أغلظ الصوت وحدد اللحظ ، فاضطرت إلى أن تسمع لمداعبته وإلى أن تدعن لطلبه حين سألها أن ترقص معه . ثم عرض عليها أن يصحبها فى طريقها إلى الدار بعد أن انتهى الرقص ، فهتمت أن تعتذر وأن تشكر ولكن لحظة حادة من عينه تلك التى كانت تنفذ إلى أعماق نفسها ، فتملأ قلبها رعباً وتهز جسمها هزاً عنيفاً ، أكرهتها على أن تقبل منه شاكرة له ما عرض عليها .

وفى أثناء الطريق ألقى إليها حبه إلقاء ، لم يتلطف فى لفظ ولم يتنظر فى إشارة . ولم يصطنع رقة ولا ليناً ، ولم يظهر تأثراً ولا افتتاناً ، ولم يسلك إلى قلبها طريق الغزل التى تعود أن يسلكها العاشقون ، وإنما أنبأها فى لهجة عسكرية بأنه يحبها ويريدها على أن تكون له زوجاً .
 وقد ثارت نفسها لهذا الحب الذى يلقي إلقاء ، ولهذا الزواج الذى يصدر به الأمر ، ولكنها خافت ، فلم تعلن ثورتها ، ولم تظهر جموحها ، وإنما آثرت الصمت . فخرجت به عن لا ونعم كما يقول بشار .
 ووجد الرفق إلى قلب هذا الفتى سبيلاً فلم يلح فى هذا اليوم ولم يراجع ، وإنما اكتفى بإلقاء الحب وعرض الزواج ، وانتظر أن تثمر هذه الحبة

التي ألقاها في هذا القلب الخصب الجديد .

ولم تره الفتاة أسبوعاً كاملاً ، ولم تفكر فيه إلا يوماً أو يومين ضائعة به نافرة منه ، ثم انقطعت الأسباب بينه وبين نفسها حتى كان آخر الأسبوع ، وهمت أن تخرج مع المساء إلى حيث يلهو الفتيان والفتيات بالرقص واستماع الموسيقى في ميدان غير بعيد من شجرات الصنوبر تلك التي يأوى إلى ظلها العاشقون إذا آثروا أن يخلص بعضهم لبعض نجياً ، على أنها لم تكد تفكر في الخروج حتى خطرت لها صورة هذا الفتى البغيض فترددت ثم أخذت نفسها بالبقاء ، ثم ترددت ثم غالبها مرح الشباب .

فخرجت تسعى على خوف واستحياء ، ولم تكد تبعد عن دارها خطوات حتى رأت هذا الفتى يسعى إليها بطيئاً مثاقلاً ، ويلقى عليها لحظه كأنه الصخر يلقي على الجسم الضعيف ، فهمت أن تعود أدراجها ، ولكنها سمعت صوتاً وقفها في مكانها لا تتقدم ولا تتأخر حتى انتهى الفتى إليها ، فأخذ بذراعها وقادها إلى الميدان ورقص معها ما أحب الرقص ، ولم يستطع فتى أن يدنو منها أو يسألها رقصة من الرقصات . حتى إذا بلغ الفتى أربه من الرقص قال لها في صوته الهادئ الحازم الخفيف : « ستعودين الآن وسأصحبك إلى الدار » . ولم تستطع إلا أن تدعن وتعود كما أراد أن تعود .

وفي أثناء الطريق لم يلق إليها حباً ، ولم يعرض زواجاً ، وإنما

أنبأها بأنه سيخطبها إلى أسرته إذا كان الغد ، وأنها ستقبل الخطبة إذا سئلت ، وقد استقبلت الفتاة هذا الكلام بثورة عنيفة لم تستطع لها إخفاء فقالت لصاحبها في صراحة حازمة إنها لا تحبه ولا ترضاه لها زوجاً وتود لو خلى بينها وبين الطريق .

وهمت أن تسرسل في هذا الزجر والتأنيب ولكنه عدل بها عن طريقها في حركة عنيفة خفيفة معاً ، وحول وجهها نحو المحيط العريض المضطرب المصطخب ، وقال لها في صوت حازم رقيق : « أترين إلى هذا البحر الذى لا حد له ولا قرار ؟ فإنه سيتزوجك إذا لم أتزوجك أنا ، فاخترى أحبنا إليك وآثرنا عندك وموعده الغد » . ثم ردها إلى دارها لم يلق إليها حديثاً ولم يسألها عن شيء .

وأنفقت الفتاة ليلتها ووجه نهارها من الغد ، تروعهما صورة البحر العريض العميق ، وتروعهما صورة هذا الفتى الغليظ العنيف . والغريب أنها لم تتحدث إلى أمها بشيء من حديث هذا الفتى ، لم تفرع إليها ، ولم تستعن بها وإنما كاتمت سرها كتماناً شديداً ، كأنما كانت تخاف إن استعانت بأمها أن تعينها وترفض الخطبة ، فيحمل الفتى عليها هذا الرفض ويزوجها من البحر بدل أن يزوجه من نفسه .

وأقبل الفتى مع المساء فخطب الفتاة إلى أهلها وعرضت الخطبة على الفتاة فلم تستطع لها رفضاً ، ولم تمض أسابيع حتى أمنت الفتاة شر البحر واحتملت شر هذا الزواج الغريب .

على أن هذا كله ليس شيئاً بالقياس إلى غرابة ما كانت تجده هذه الفتاة بعد أن أصبحت زوجاً لهذا الرجل الذى غصبها غصباً ، فهى كانت وما زالت إلى هذا الوقت الذى تحدثنى فيه تبغض زوجها أشد البغض إذا نأت عنه أو قربت منه . لا تستطيع أن تراه ولا أن تسمعه دون أن تنقبض نفسها أشد الانقباض ، فإذا دنا منها متلطفاً فى اعتدال وأخذ معها فى دعابته الهادئة لانت له ودانت فى خوف وإشفاق ، ثم لا يزال بها حتى يسحرها سحراً ، ويختلب قلبها ولبها اختلاباً ، ويرقى بها إلى أقصى ما تستطيع أن ترقى من السعادة والبهجة والنعيم . ثم تنقضى هذه الساعات ، وينقضى معها هذا الحلم الغريب وتفيق الفتاة مبغضة لزوجها أشد البغض نافرة منه أشد النفور . وهو لا يغيظه منها بغض ولا يؤذيه منها نفور وإنما هو راض عن طاعتها له وعنايتها به واستسلامها إليه ، وسعادتها حين يريد لها أن تكون سعيدة .

ثم كانت الحرب ودعى الرجال إلى الميدان ، وكان أسرع من استجاب إلى الدعاء ، وقد ودع امرأته متجهماً لها ، ولم يزد على أن أشار إلى المحيط وقال لها بصوته الهادئ المطمئن : انظرى إليه إنه أحسن زوج للخائنات .

وانقضت أعوام الحرب كلها ومدام ليونتين وفية لزوجها عن حب له ، أو عن خوف منه ، أو عن خوف من هذا المحيط الذى لا حد له ولا قرار .

وكان هذا الرجل يلم بأهله من حين إلى حين أثناء الحرب فيلقى امرأته راضياً وينصرف عنها مطمئناً ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها نقلها إلى باريس واستقر في هذه المدينة يعمل هو خادماً في إحدى القهوة وتعمل هي خادماً في بعض البيوت ، يفترقان إذا أشرق الصبح ويلتقيان إذا أقبل الليل . يفترقان وهي سعيدة بهذا الفراق ويلتقيان وهي شقية بهذا اللقاء ، ويدوقان معاً السعادة الغريبة النادرة في ساعات قصار حتى تم تكوين الأسرة فكان الولد ، وكان تنشئ الولد وكانت العناية بالتربية والتعليم . وها هي هذه اليوم تنبئ بأن ابنها قد نجح في الامتحان ، وأن ابنتها قد ظفرت بالشهادة الابتدائية وأن زوجها قد ربح ورقة من أوراق النصيب . وهي سعيدة بهذا كله ، هي سعيدة بأنها قد جمعت شيئاً من مال وأن زوجها مثلها قد جمع شيئاً من مال ، وأن هذه الورقة التي ربحها زوجها أمس قد ضخمت كنزهما وعظمت ثروتهما فأصبحا غنيين عن الخدمة في القهوة والبيوت . وهي تحب باريس وتريد أن تعيش فيها ، ولكن زوجها يحب بريطانيا ويريد أن يعود إليها ، وسيشترى فيها داراً يشرف منها على المحيط ، وهي مضطرة إلى أن تتبعه لأنها تخافه في باريس كما كانت تخافه في بريطانيا . وهي لا تكره أن تنفق ما بقي لها من الحياة بين هذين العدوين ؛ عدوها الذي يمنحها السعادة لحظات من حين إلى حين ، وعدوها الذي يدخر لها الموت إن خالفت قوانين

الحب والوفاء للزوج .

وكانت مدام ليونتين وهى تلقى إلى أحاديثها هذه تفلسف فى سداجة حلوة فتسأل : كيف توجد السعادة فى غير شقاء ؟ وتسخر من هؤلاء الذين لا يرضون عن الحياة إلا أن تكون حرة طليقة ؛ وتسأل أحق أن الحرية تكفل السعادة للناس وأن الاستبداد لا يعقب الناس إلا شقاء ؟ ولست أدرى أين قرأت مدام ليونتين أن موسولينى قد أصلح إيطاليا ، وأن هتلر قد قوم ألمانيا ، فهى تقول لى انظر يا سيدى إلينا إننا أحرار فى بلادنا ولكن أمورنا مضطربة فاسدة أشد الفساد ، وإن الإيطاليين والألمانيين بعيدون عن الحرية إلى أقصى غايات البعد ولكن أمورهم منظمة صالحة ، فأنا يا سيدى كإيطاليا وألمانيا سعيدة برغم أننى وغيرى من النساء كفرنسا يؤثرون الحرية على السعادة . قلت ضاحكاً : ولكن لو خيرت الآن فماذا تختارين ؟ فسكتت غير طويل ثم قالت : أظن أنى أختار حرية الفرنسيات .

بين الحب والإثم

أصبحت مبهجة القلب ، راضية النفس ، ناعمة البال ، مبتسمة للنهار المشرق كما كان يبتسم لها النهار المشرق .
وكانت مع ذلك تخفى شيئاً طالما تعودت إخفاءه من اضطراب النفس ، وقلق الضمير . وكان هذا الاضطراب والقلق ، يعتادانها من حين إلى حين . في مواعيد معينة معروفة هي التي كانت تضرب بينها وبين صاحبها للقاء مرتين في الأسبوع أو مرات . فكانت تهتم لهذه المواعيد قبل أن يحين حينها ، تهين لها وتستعد لاستقبالها ، ولم يكن هذا شيئاً يسيراً ولا هيناً ، ولا محبباً إلى نفسها ، ولكنه كان من هذه الآلام الثقال التي يحتملها الناس ، لأنهم يلقون من ورائها لذات عذاباً . فقد كانت هذه المواعيد آثمة لا يقرها الخلق ، ولا يرضاها الدين . ولا تطمئن إليها أوضاع الناس فيما ألفوا من سنة وتقليد . وكانت صاحبتنا هذه على ذلك تحيا في أسرة كريمة معروفة لا ترقى إليها ظنة ولا يبلغها ريب . فكان ذلك يشق عليها ويؤذيها ، وربما أرقها ليلة كاملة بما كان يثير في نفسها من عواطف الألم والندم ، والخوف والإشفاق . ومن عواطف الحرص مع ذلك على هذه المواعيد التي امتزج فيها بنفس هذه البائسة وقلها ، أشد الامتزاج وأقواها ،

فأصبحت لا تستطيع الحياة إلا لهذه المواعيد ، وأصبحت لا تستقبل يوماً من أيام الأسبوع. ولا ساعة من ساعات اليوم إلا فكرت فيما بين هذا اليوم أو هذه الساعة ، وبين يوم الموعد أو ساعته من أمد .

وكانت من أجل هذا كله قد انتهت إلى ما ينتهى إليه أمثالها من هذه الحياة الغريبة التى يتم فيها الاتفاق والائتلاف بين الخوف والرجاء ، وبين الألم والأمل ، وبين السعادة والشقاء . كانت أسعد الناس بهذه المواعيد تنعم بالتفكير فيها ، والسعى إليها . والاستمتاع بما تدخره من لذة وبهجة وأمل ، وكانت أشقى الناس بهذه المواعيد تألم أشد الألم وألذعه حين تفكر فيما تضطرها إليه من خروج على السنة المألوفة ، وإعراض عن الخلق الكريم ، ونقض للعهد المسئول . وقد طالت عشرتها لهذا الشقاء وتلك السعادة التى أصبحت تنتقل بينهما هادئة مطمئنة كما تنتقل فى غرفات بينها وحجراته . تضيق بالألم والشقاء فتتركها إلى السعادة والرجاء ، تتمثل صاحبها وقد أقبل عليها باسم مشرق الوجه يسعى إليها فى هدوء ظاهر متكلف ، وهيام خفى مكظوم حتى إذا لقيها طوف معها فى هذه الحديقة أو تلك أو أوغل بها فى هذا الريف أو ذاك ، أو أمعن بها فى الصحراء من شرق الوادى أو غربيه ، ثم يعود بها إلى حيث ألفا أن يعودا حين يتقدم المساء . ثم يودعها بعد حين طويل أو قصير ، وقد ضربا للقاهما موعداً آخر يضمهما مثل ما أظهر لهما هذا الموعد من حياة كلها ابتهاج وبعم .

فإذا قضت حظها من هذا التفكير الحلو انتقلت منه إلى تفكير مر شديد المرارة ، فرأت زوجها الكريم النبيل ، وأبناءها الأغرار الأطهار ، وتمثلت حبهما لها وثقتهم بها واطمئنانهم إليها . وانصراف هذا الزوج إلى ما ينصرف إليه من عمل ، واحتماله ما يحتمل من جهد ، وإقبال هؤلاء الأبناء على ما يقبلون عليه من درس في نشاط حلول يحجب الحياة إلى الأحياء ، ثم تمثلت مع هذا كله مكانها من الإثم ، وأنها ليست أهلاً لهذا الحب ولا جديرة بهذه الثقة ولا خليفة بهذا الاطمئنان . وكانت كذلك قد ألفت الاضطراب بين هذه العواطف المختلفة فكانت ترى راضية ناعمة مشرقة الوجه وإن في قلبها ألماً لا ذعاً وحزناً عميقاً . وكانت ترى أحياناً كثيباً كاسفة البال مظلمة اللحظ وإن من وراء هذا كله لسعادة وغبطة وابتهاجاً .

وقد أصبحت في هذا اليوم ظاهرة الرضى واضحة الابتهاج تستقبل ساعات النهار مبتسمة للأمل مهيئة للنعيم . متعجلة حركة الفلك مشفقة مع ذلك من طارئ يطرأ أو حادث يلم ، مشفقة أيضاً من هذه العيون الخفية التي ترى الناس ولا يراها الناس ، ومن هذه الآذان الخفية التي تسمع الناس ولا يعلم الناس بمكانها ، ومن هذه الألسنة الخفية التي تتلقى عن أعين الغيب وآذانه صوراً وألفاظاً ، فما أسرع ما تسعى بها أو ترسلها في الهواء إرسالاً . على أن صاحبتنا أرادت أن تنصرف في هذا اليوم عن كل ما يحزن أو يسوء ، وأن

تسبق الموعد إلى الاستمتاع بجمال الربيع وبهجة الحداثات والجنات .
وما يمنعها أن تقضى وجه النهار في مكان من هذه الأمكنة الجميلة
الهائلة التي يبسم فيها الزهر النضر ، ويرق فيها النسيم ويسعى
من تحتها النيل هادئاً مطمئناً كأنه ساع إلى الرياضة والنزهة لا يلتمس
غرضاً ولا يدفعه دافع إلى الإسراف في الحركة والنشاط . ما يمنعها
أن تخلو إلى سعادتها وشقتها في مكان من هذه الأماكن الهائلة
تعكف على نفسها الراضية حيناً وعلى نفسها الساخطة حيناً . فإذا
ضاقت بهذه أو تعبت من تلك خلت إلى هذا الزهر الباسم . وإلى
هذا النسيم الهادئ وإلى هذا النهر المطمئن فتاجتها في دعة وأمن
واطمئنان .

ليس ما يمنعها من ذلك وقد مضى زوجها إلى عمله المألوف .
ينفق فيه أكثر النهار ، ومضى أبناؤها إلى مدرستهم أو إلى مدارسهم .
لا يعودون منها إلا مع المساء ، واستقل الخدم بأعباء البيت بعد أن
تلقوا أمرها فيما يحتاج إلى أن تأمر فيه . وأتيح لها ما يتاح لأمثالها من
هذا الفراغ الذي قلما يملؤه الخير وكثيراً ما يملؤه الشر .

خرجت إذن مع الضحى يرافقتها صديقاها : السعادة من يمين
والشقاء من شمال ، ويسعى بين يديها أمل هادئ مطمئن يبسم لها
عن اللذة حيناً وعن التعزية والتسلية حيناً آخر . ولم تكره أن تأخذ
صحيفة من هذه الصحف التي تعرض على الناس ، لتنظر ف

قبل أن تنظر في نفسها ، أو قبل أن تنظر في الطبيعة حين تخلو إلى الطبيعة ، فقد يكون الإنسان سعيداً كأقصى ما يسعد الناس وقد يكون شقياً كأقصى ما يشقى الناس ، ولكن هذا لا يمنع ، وما ينبغي أن يمنع من أن ينظر في الصحف نظرة قصيرة عجلة ليعرف أبناء أمثاله ، وما يلم بهم من خير وشر . فيعطف عليهم بابتسامة أو شيء من البر ، فما يحسن بالإنسان أن يكون أثيراً . تشغله سعادته أو شقاؤه وآماله أو آلامه عما يلم بمعاصريه من الحوادث والخطوب .

وكذلك انتهت إلى حيث أرادت أن تقضى ساعات من الوقت خالية إلى نفسها ، وإلى الطبيعة . وأنفذت برنامجها أو أخذت في إنفاذه ، فردت نفسها إلى حيث ينبغي أن تكون مسترة مستخفية حتى تفرغ لها بعد حين . وأعرضت عن الزهر والشجر ، وعن النسيم والعشب ، وعن النيل الهادئ المطمئن ، وأخذت تنظر في هذه الصحيفة التي اشتريتها والتي كانت تقدر أنها لن تنفق معها إلا لحظات معدودات . وهي لم تنفق معها إلا لحظات معدودات حقاً ولكنها مع هذا لم تفرغ لنفسها ولم تناج سعادتها ولا شقاءها ولم تناغ هذا الزهر النضر ولا هذا الشجر الملتف ولا هذا النيل الرزين ، ولم تسمع غناء هذه الطيور التي لم تكن تنفك تغرد ، ولم تكن مع ذلك نائمة ولا مغشياً عليها ، وإنما كانت مستقرة في مكانها الذي اختارته ، وكان الذين يمرون بها - لو أن أحداً مر بها في هذا المكان الذي اختارته بعيداً عن طريق

المارة - يرون امرأة قد جلست كأنها التمثال لا تأتى حركة ، ولا تنطق بكلمة ، وإنما هى دموع غزار تنهلّ فى صمت على وجه كان جميلاً ناضراً فأدركه هذا الذبول المؤلم الذى يدرك وجوه الناس ، حين يعصف بقلوبهم خطب أليم .

ولست أدري أقضت فى مجلسها هذا ساعة أم ساعات ! ولكنها كانت فى بيتها قبل أن يعود زوجها من عمله ، ولم تكذب تبلغ هذا البيت حتى أسرعت إلى غرفتها فأصلحت من أمرها وردت إلى وجهها شيئاً من الجمال المصنوع وأخذت نفسها أخذاً عنيفاً حتى اضطرتها إلى شيء من الهدوء واعتدال المزاج . ثم خرجت إلى حيث يلقاها زوجها حين يعود من عمله كل يوم .

ولم يلاحظ زوجها ، ولم يلاحظ أبنائها ، حين عادوا مع المساء إلا أنها لم تكن مسرقة فى النشاط ولا غالية فى الابتهاج ، وليس هذا بالشىء الغريب ، فقد ألفوا منها هذه الكآبة الخفيفة تغشى وجهها من حين إلى حين . وليس من الطبيعى أن يكون الإنسان فرحاً دائماً مبتهجاً دائماً شديد النشاط فى كل يوم .

ولو أنها استمعت لضميرها واستجابت لما كانت تدعوها إليه طبيعة الأشياء ، والمألوف من سيرة الناس للزمت بيتها هذا المساء ولانتهزت أول فرصة تتاح لها فخلت إلى نفسها فى غرفتها واستسلمت لهذا الحزن

العميق الذى كان يجاهدها جهاداً عنيفاً ليظهر وينفجر ، والذى كانت تجاهده جهاداً عنيفاً ليكمن ويستخفى .

نعم لو أنها استجابت لما كانت تدعوها إليه طبيعة الأشياء أو المألوف من سيرة الناس لفعلت هذا أو لاندفعت فى شىء من هذه الحركات التى ينفق الناس فيها وقتهم ، وينسى الناس بها أنفسهم من لقاء الأصدقاء وزيارتهم أو استزارتهم والتحدث إليهم بما لا يفيد ، والاستماع منهم لما لا يغنى ، واصطناع هذا النوع من التفاف الاجتماعى الشائع الذى يخفى علينا أنفسنا ويخفى أنفسنا على الناس . ولكنها كانت فى هذا المساء جاححة النفس ، نائرة الضمير ، هائجة الغريزة ، شاردة الإرادة ، فلم تستمع لطبيعة الأشياء ، ولم تستجب للمألوف من سيرة الناس ، ولم تخل إلى نفسها فى غرفتها ، ولم تفر من نفسها إلى صديقاتها وإنما استجابت لشىء واحد ، هو هذه العاطفة التى كانت تلح عليها أشد الإلحاح فى ألا تخلف الموعد الذى ضربته لصاحبها مهما تكن النتائج ومهما تكن الظروف . فإن المواعيد لا تضرب لتتقضى ، وإنما تضرب ليوفى بها أصحابها ، وهى تعلم حق العلم أنها إن ذهبت للقاء صاحبها حيث اتفقا أن يكون بينهما اللقاء فلن تجده ، وأنها قد تنتظره ساعة وساعة . وقد تنتظره الليل كله ، وقد تنتظره الدهر كله ، فلن تراه لأنها قرأت نعيه فى تلك الصحيفة التى اشترتها صباح اليوم . ولكن هذا لا يعفيها من الوفاء بالوعد والسعى إلى اللقاء والجد فيه ، وهل كان

هذا النعى الذى قرأته فى الصحيفة صباح اليوم إلا كتاباً من صاحبها ينبها فيه بأن مكان اللقاء قد تغير لظروف طارئة أقوى منه ومنها ، فلن يكون اللقاء فى هذه الحديقة الجميلة على الضفة الغربية للنيل ، ولكنه سيكون إن أرادت فى ناحية من نواحي الصحراء هناك حيث يستقر الناس بعد أن ينفضوا عن أنفسهم أوزار الحياة ، أو بعد أن تفهم الحياة منها نفعاً .

أليس قد بين لها صاحبها فى هذا الكتاب مكان اللقاء فى الصحراء ! لقد كان دقيقاً فى كتابه فبين الطريق التى سيسلكها منذ يخرج من داره مع المساء إلى أن ينتهى إلى مواعده مع الليل . سيسلك هذا الطريق هادئاً رزيناً حتى إذا انتهى إلى مسجد من مساجد الله عطف عليه فقدم نفسه الآثمة النادمة إلى الله تائبة نائبة مستخرية تلتمس فضلاً من عفوه الذى لا حد له وحظاً من رحمته التى وسعت كل شيء .

ثم يخرج من المسجد فيتخذ سيارة ويمضى مسرعاً إلى مواعده من الصحراء . وكان عقل هذه البائسة يحاول أن يتسلط على نفسها بالخاصة وضميرها الثائر وعواطفها المضطربة . وأن يبين لها أن لا بد مما ليس منه بد ، وأن هذه الأسباب الآثمة قد انقطعت بينها وبين صاحبها منذ عدا عليه الموت أمس ، ولكنه لم يكن يبلغ مما يريد شيئاً . وهذا الليل قد ألقى ظلماته على الصحراء فجعلها برداء قاتم . كئيف ، وهذه امرأة ماثلة وحدها غير بعيد من هذا القبر الذى لم

تفرغ الأيدي من تسويته إلا منذ وقت قصير ، هي قائمة واجمة لا تدنو من القبر ولا تنأى عنه ، تود لو استطاعت أن تسعى حتى تنتهي إليه فتجثو عنده وتبثه ما يملأ قلبها ونفسها من حزن وحب ، ومن ألم ويأس ، ومن رغبة قوية في أن تلحق بصاحبه الذى استقر فيه . ولكنها لا تستطيع أن تخطو خطوة إلى أمام كأنما أخذت رجلاها بقيد عنيف ثقيل . وقد يخطر لها في لحظة قصيرة أن تعود أدراجها فقد أتت لموعدها ، ووفت لصاحبها ، كما يستطيع الناس أن يأخذوا بحظهم من الوفاء . ولكنها لا تستطيع أن تخطو خطوة إلى وراء كأنما أخذت بنيد عنيف ثقيل . ما هذا القيد الذى وقفها في هذا المكان ومنعها أن تتقدم أو تتأخر ، إنها مع ذلك لا تحس شيئاً ، إنها لتجد ساقها حرتين ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تسعى نحو القبر ولا تستطيع أن تعود من حيث جاءت .

إن قوة هائلة مخيفة مروعة قد قامت بينها وبين القبر هي لا تراها ولا تحسها إلا حين تحاول الخطو إلى أمام فهي حينئذ ترى ما يخيفها ويروعها ويملأ قلبها هولاً ورعباً ويعقد لسانها فلا تقول ، ويطبق فمها فلا تصيح .

وإن قوة أخرى ليست هائلة ولا مروعة ولا مخيفة ولكنها حزينة ملحة في الحزن ، شاحبة ملحة في الشحوب ، نحيلة ضئيلة ولكنها مع ذلك قوية لا تراها هذه المرأة إذا التفتت أو تحولت ، ولكنها

إذا همت أن تخطو إلى وراء أحست صوتاً يمزق القلوب ويفرق النفوس يقول لها في حزن : « إلى أين تذهبين ! وجبك ماذا تصنعين به ! وهل بقي لك أمل في الحياة ؟ ». والوقت يمضي والليل يتقدم والسكون من حول هذه المرأة يتصل ملحاً ثقيلاً وهي في مكانها قائمة واجمة يثوب إليها عقلها بين حين وحين ، فتحاول الحركة فلا تستطيع ، وتحاول الصباح فلا تستطيع ، وتحاول النجوى فلا تستطيع ، وإنما هي تمثال قد حيل بينه وبين الحركة والقول ، ولم يحل بينه وبين الحس والشعور والتفكير .

ثم تضطرب في هذا التمثال الشاعر المحس المفكر رعدة قوية تظهر في أصل نفسه ثم تنتشر بسرعة في جسمه كله . وإذا المرأة قد انطلق لسانها المعقود وفتح فمها المطبق ووجدت القدرة على الحركة واستصاعت إن أرادت أن تخطو إلى أمام ، وأن تخطو إلى وراء كأنما رفعت عنها قيود وأغلال كانت قد فرضت عليها فرضاً ، ولكنها مع ذلك لا تسعى إلى القبر كأنها تحس أنها لثم كلها ، وأن هذا القبر قد أصبح بمنجاة من الإثم الجديد .

كم كانت تحب لو سقت هذا القبر بهذا الدمع الغزير الذي ينهل على وجهها ولكنها مع ذلك لا تفعل ، كأنها تحس أن هذا الدمع لثم كله ، وأنه سيستحيل ناراً محرقة إن بلغ هذا القبر ، وما ينبغي لهذا القبر أن تمسه منها النار .

كلا ، لقد حيل بينها وبين صاحبها حياءً حين قطع الموت

ما كان بينهما من الأسباب ، ولقد حيل بينها وبين صاحبها ميتاً ، حين قام تمثال الإثم بينها وبين هذا القبر ، إن الطريق حرة مطلقة من ورأها تستطيع أن تسلكها متى شاءت لن تجد من يردّها ، ولن تجد ما يعوقها ، إن هذه القوة الحزينة التي كانت قائمة من ورأها تمنعها من الرجوع قد تحولت عن موقفها شيئاً وخلت بينها وبين الطريق ، واتخذت صورة الرفيق الحزين المستعزى الذى يريد أن يرافقها وألا يفارقها ما وجد إلى مرافقتها سبيلاً .

وهذا شخص آخر يظهر فى وجهه الحزم والصرامة ولا يخاو وجهه مع ذلك من رفيق ولين قد أقبل حتى قام عن يمين هذه المرأة هادئاً رفيقاً تجرى فى وجهه ابتسامة حلوة لا تخلو من كآبة وحزن ، وهو يظهر الاستعداد لمرافقة هذه المرأة وأخذها بالتعزية الحلوة الحازمة ما وجد إلى ذلك سبيلاً .

والمرأة تتحول عن موقفها وتسعى بين هذين الرفيقين فى طريقها عائداً إلى بيتها . وهما يسعيان معها عن يمين وشمال صامتين لا يقولان شيئاً . ولكنها تفهم عنهما كل شيء ، فأما أحدهما فيحدثها عن زوجها الوفى وأبنائها الأغرار الأطهار ، وأما الآخر فيحدثها عن هذا القبر الذى حال بينها وبين من كانت تحب ، والذى احتوى حبها وأملها ولذتها وسعادتها جميعاً .

وتمضى أيام وأيام ، وتمضى أشهر وأشهر ، وتمضى أعوام وأعوام ،

١٤٣

وتتقدم السن بهذه المرأة ولكنها دائماً لا تنظر إلى يمين إلا رأت شخص
الواجب هائلا يظهر في وجهه الحزم الحلو ، وتعرجى في وجهه الابتسامة
الحزينة . ولا تنظر عن شمال إلا رأت شخص الحب هائلا يظهر في
وجهه حزن وخزي ويظهر في وجهه كذلك تصميم على ألا يفارق هذه
المرأة حتى تفارق الحياة .

نفس معلقة

مضوا مصعدين في طريق وعرة مدرجة ضيقة قد التوت حول الجبل ، كأنما كانت تريد أن تأخذه أخذ السوار للمعصم . وكانت عن يمينهم ، وهم يمضون في هذه الطريق الضيقة بطاء ثقلاً متعثرين ، هوة عميقة سحيقة ملتوية التواء الطريق نفسها ، يتدفق في قرارها سيل عنيف غزير له هدير يملأ الجو صخباً وضوضاء ، حتى لا يكاد الإنسان يسمع صوت صاحبه إلا في شيء من الجهد والعناء . وكان على السفحين عن يمين القوم وشمالهم شجر كثيف ملتف . متصل صفيق الظل ، قد علق في السفحين تعليقاً ، وقام بعضه من فوق بعض حتى لا يكاد البصر يبلغ أعلاه ، كما لا يكاد البصر يبلغ آخره طولاً وقد امتدت أغصانه من هنا ومن هناك ، وتكاثف بعضها فوق بعض حتى التقت وتناصت كما كان يقول القدماء ، أو اعتنقت كما يجب أن يقول المحدثون ، وانعقدت من هذه الأغصان الملتقية الملتوية ، سقوف ضخام لا تنفذ من أثنائها أشعة الشمس إلا في مشقة وعناء .

وكان القوم يمضون بطاء ثقلاً كما قلت يصعدون في هذا الدرج الوعر ، وتترلق أقدامهم على هذه الحجارة الملس ، لولا أن عصيهم ذات الأطراف المحددة كانت تسبقهم شيئاً إلى أمام تتحسس لهم

أخبار الطريق ، وتبين لهم مواضع الخطو وتثبت لهم من الأمن . وكان النهار قد تقدم حتى أدركته هذه الشيخوخة التي يسبغ الأصيل عليها رداء شاحباً حزيناً يبعث في النفوس شحوباً وحزناً . وكان القوم متعبين ، ولكن التعب لم يستطع أن يفيل من عزائمهم ، ولا أن يثبط من همهم ، ولا أن يردمهم عما قصدوا إليه أول النهار من أن يبلغوا منحدر السيل ، وينتهوا إلى هذه الصخور العظام التي يتفجر منها الماء في منظر رائع رهيب ، ثم ينحدر عنها في هدير يملأ النفوس هلعاً ورعباً وشعوراً قوياً بالجمال .

وكان صاحبي يسايرهم متابعاً لهم في الرأي على كره منه ، نشيطاً للحركة والرياضة أول الأمر ، ثم ضيقاً بهذا الحر الثقيل وهذه الطريق الوعرة ، وهذه الخطى المتعبة ، فلما قرب القوم من هذه الصخور العظام ولم يبق بينهم وبين بلوغها إلا ساعة أو بعض ساعة ، وقفوا يستريحون ويستجمعون ما بقى لهم من نشاط وقوة ليهجموا بهما على هذا الشوط الأخير . ثم تم لهم ذلك فهموا بالتصعيد ، ولكن صاحبي أبى عليهم وأقسم لا يبلغ تلك الصخور ، ولا يبرح مكانه الذي انتهى إليه ، وطال بينه وبينهم جدال مؤلم ، لم يخل من ألفاظ لاذعة ، ولكنه صمم ، وكان حسن التصميم ، لا يتحول عن رأى إذا اطمأنت نفسه إليه ، فتم بينه وبين القوم اتفاق مؤلم مظلم ، على أن يظل في مكانه منتظراً لهم حتى يصعدوا إلى منبع السيل

فيرضوا منه حاجتهم ، ثم يصاحبهم بعد ذلك في العودة حين ينحدرون إليه .

ولم يكن صاحبي قد فقد نشاطه كله ، ولم يكن قد استيأس من القدرة على التصعيد ، ولعل نفسه كانت تنازعه إلى المضي مع القوم فيما مضوا فيه ، ولعله لم يبق في مكانه إلا بعد أن جاهد نفسه جهاداً غير قليل . ولكن ماذا نريد ، لقد عرض له عارض حال بينه وبين المضي واضطره إلى البقاء ، وقد ظل أصحابه بعد ذلك ينكرون عليه عناده ، يحسن بعضهم به الظن فيقول إنه قد أدركه التعب وبلغ منه الجهد ، وقيدته الإعياء ، ويسئ بعضهم به الظن ، فيقول إنما هو عارض من سوء الخلق عرض له فصرفه عن هم أصحابه وإنما هي خنزوانته التي تعرض له من حين إلى حين فتفسد رأيه في الناس ، وتفسد رأى الناس فيه ، وتدفعه إلى شذوذ منكر ، يحمل أصحابه على أن يتواصوا بأن يتركوه حتى يثوب إلى رشده أو يثوب رشده إليه . وقد أقسم لي صاحبي ما أثقله جهد ولا قيده إعياء ولا ألمت به خنزوانته ، ولكنه صوت تردد في الغابة ، فلم يكذب يبلغ أذنه حتى انتهى إلى نفسه فس منها موضعاً دقيق الحس سريع التأثير ، وإذا هو يعنى بهذا الصوت ويلتفت إليه ، فيزداد تأثره به ، وإذا هو يحول نفسه كلها نحوه ويقف حسه كله عليه ، وإذا هو يتبين مصدر هذا الصوت ويسأل أصحابه : أسمعون ؟ وماذا يسمعون ؟ فلا يجحد منهم إلا إهمالاً وقتوراً ،

وإعجاباً بهذين السفحين عن يمين وشمال ، وبهذه الهوة ينحدر فيها السيل العنيف وبهذه الطريق تلتوى حول الجبل كأنما تريد أن تطوقه . ثم بهذه الصخور العظام التي خرجوا مع الصبح يلتمسونها . فأما هذا الصوت فقد أنبؤوه فاترين بأنهم يسمعون ويظنون أنه صوت حشرة من حشرات الغابة . ولما رأى فتورهم وإعراضهم كره أن يلح عليهم واستحيا أن يظهر نشاطه لما لا ينشطون له ، وعنايته بما لا يعنون به . ولكنه ازداد إقبالاً على الصوت وفراغاً له . وتحليلاً لدقائقه ، واقتنع بأنه إن طال الاستماع له فقد يفهم عنه شيئاً ذا بال . وكان سعيداً حقاً حين تخفف من أصحابه وحين تركهم يصعدون نحو صخورهم العظام ، وحين انقطعت عنه أصواتهم وحين خلا إلى نفسه فلم يسمع إلا هذا الصوت الملح المتصل في شيء من التقطع كأنه نداء ، وكأنه نداء حزين فيه شكاة حزينة ، يملؤها ألم لا يكاد يحد . وقد كلف نفسه كثيراً من البحث لعله يتبين مصدر الصوت فلم ير شيئاً . ولم يتبين شيئاً وإنما استيقن أن الصوت يأتي من يمين ، واستيقن أنه ليس صوت طائر معروف ، وليس صوت حشرة معروفة من حشرات الغابة ، وكاد يقطع بأنه ليس صوت حيوان ، وأخذت تصعد من قلبه إلى رأسه في أناة وهدهد فكرة غريبة لم يكن يقدر أن تخطر له ، ولكنها مع ذلك عرضت له فاضطرب لها اضطراباً شديداً أول الأمر ، وهم أن يصعد في الجبل لاحقاً بأصحابه ، أو أن ينحدر من الجبل

ولم يبلغ إلا قلبه هو ، ولم يؤثر إلا في نفسه هو ، فيجب أن تكون هناك صلة بينه وبين مصدر هذا الصوت . ويجب أن تكون الأقدار قد دبرت الأمر تدبيراً محكماً ، وهيات له هذه التزهة ليقتصد إلى هذا المكان وليسمع فيه هذا الصوت ، وليعلم فيه علم هذه النفس ، ويجب أن يكون هناك شيء ذو بال سينتهي إليه . ومن يدري لعل لهذه النفس رسالة تريد أن تبلغها إلى أحد من الأحياء .

كذلك خرج صاحبي عن طوره خروجاً تاماً ، كان هادئ الجسم كل الهدوء مضطرب النفس كل الاضطراب ، أو قل كان عاقل الجسم كل العقل ، لا يظهر عليه شيء ينكره الناس ، وكان مجنون العقل كل الجنون لو اطلع الناس على ضميره لأنكروه أشد الإنكار .

أقام صاحبي طويلاً على هذه الحال ؟ أقام صاحبي قصيراً على هذه الحال ؟ أنبأني أنه لم يدر ، ولكنه أحس يداً توضع على كتفه ، وصوتاً يصيح به في عذوبة لا توصف : أنا أنتم أنت ؟ فالتفت ، فإذا زوجه قد أقبلت منحدره مع أصحابه وإذا هي تدعوه إلى النهوض .

قال وقد سمع صوتها وفهم عنها : « لا لست نائماً ، ولكني كنت مغرقاً في الاستماع لهذه النفس » . قالت زوجه في شيء من العجب : « أي نفس ؟ » قال : « ألا تسمعين هذا الصوت ؟ لقد سألتك عنه آنفاً فلم تحفلي بسؤال ، ولقد بقيت لأعلم علمه ، وما أشك

في أنه صوت إنسانى يصدر عن نفس إنسانية معذبة شاكية ..
قالت زوجها : « ويلي عليك يا صاحبي ! ما أرى إلا أن قراءتك
المتصلة ستمضى بما بقى من عقلك . هلم فقد أقبل الليل ولا ينبغي أن
يفوتنا القطار » .

ونهض صاحبي فضى مع القوم كارهاً وهم يسخرون منه ويتندرون
عليه . ويصفون له جمال ما رأوا ، وروعة ما شهدوا ، وهو يسمع
لهم حيناً ويذهل عنهم حيناً ، ثم كانت العودة وكان الاضطراب فيما
يضطرب فيه المصطافون في مدينة فرنسية من مدن الجبل إذا أقبل
الليل .

ثم أصبح صاحبي حائراً لا يدرى ، أيتحدث بحديثه إلى زوجته
أم يكتتمها إياه ؟ ذلك أنه كان يشفق أن يروعهما إن تحدث إليها
بهذا الحديث ، وكان يشفق أن يسوء ظنها به أو أن يسوء رأيها فيه ،
أو أن تنتهى من أمره إلى أنه مجنون قد فقد الرشد وأضاع الصواب . على
أنه آثر أن يخفى هذا الحديث وأن يفارق هذه المدينة التي كان كل
شئ فيها يدفعه إلى الجبل وطريقه الملتوية وأغصانه المتناصية ، وهذا
الصوت الذى يتردد متصلاً معلناً للحزن معرباً عن الشكاة .

وما هى إلا أن يظهر الضجر بالمقام في هذه المدينة ، ويزين
الانتقال إلى مدينة أخرى ، ويبدل الوعود والأمانى ، ويتلطف في
السيرة والحديث ، ويثر المغريات من حوله نثراً ، حتى انتهى إلى

ما أحب وفارق هذه المدينة التي كره المقام فيها كرهاً شديداً . . .

قصد مع أسرته إلى قرية هادئة من قرى المحيط ، ولقيني في تلك القرية وحدثني فيها بهذا الحديث . ولما انتهى منه إلى حيث انتهيت ، لاحظ في وجهي إنكاراً وسخرية ، فراه ذلك بعض الشيء ، وقال إنك لتذهب مذهب القوم وتهمني في عقلي وما تشك في أتي مجنون ، أو مقبل على الجنون . وهمت أن أرد عليه وأن أزيل ارتياحه ، فلم يحفل بي ، ولكنه مضى في حديثه قائلاً : « يجب أن تستمع لآخر الحديث ، وأن تجعل بيننا عهداً لنحققه ، فإن انتهينا إلى صدقه اعترفت معي بأني سمعت نفساً إنسانية تتكلم ، وإن انتهينا إلى كذبه اعترفت معك بأني كنت مريضاً مجنوناً أو مشرفاً على الجنون » . قلت : وكيف ذاك ؟ قال : « إن هذه النفس التي سمعت صوتها في الغابة عرضت لي بعد ذلك في النوم وحملتني رسالة إلى صديق تعرفه وأعرفه » . قلت ، وقد ازداد إنكارى لصاحبي ، ولكني مع ذلك أظهرت العناية والدهش : « ماذا تقول » ؟ قال : « أقول إن هذه النفس تراءت لي في النوم ، وأنبأتني بأني لم أخطئ فيما قدرت حين استمعت لها وبأنها نفس إنسانية وبأنها نفس فلانة ، أتعرفها » ؟ قلت : « نعم أعرفها لقد شيعناها إلى القبر منذ أشهر » . قال : « فهل تعرف أن بينها وبين فلان صلة » ؟ قلت : لا . وما كان ينبغي أن توجد بينهما صلة . قال : « فإنها أنبأتني بأنها قد كانت له خلية ، وبأن أول أمرها كان منذ أعوام

١٥٣

في هذا المكان الذي سمعتها فيه ، وبأنها بعد أن فارقت الحياة ومضت في طريقها المجهولة ، إلى غايتها المجهولة انقطعت بها الطريق في هذا المكان . وألقى إليها أنها ستبقى هنا وحيدة تنتظر صاحبها حتى إذا أدركتها نفسه بعد وقت طويل أو قصير مضتاً معاً في طريقهما المجهولة إلى غايتها المجهولة ، ولكنهما يجب على كل حال أن يستأنفا سفرهما من هذا المكان الذي استكشفا فيه قلوبهما . وقلت وقد أدركني من حديث صاحبي شيء يشبه الذعر ، إن لم يكن هو الذعر : « ما رأيت كالיום حديثاً عجباً » . قال : « بل قل ما رأيت كالיום جنوناً عجباً ، فهذا أصدق في الإعراب عما تريد . ولكننا سنلقى صاحبنا إذا عدنا إلى أرض الوطن . وستلطف له لنعلم أكان بينه وبين هذه السيدة شيء ، وستبين أكان حديثي هذا عرضاً من أعراض الجنون أو أثراً من آثار الأعصاب المريضة المكدودة » . قلت : ولكنك لم تحدثني بهذه الرسالة التي تحملها إلى صاحبنا عن هذه النفس . قال : « وبماذا تريد أن أحدثك . إنها تتعجل مقدمه عليها ، وماذا يملك المسكين من أمره ، ومتى استجاب الأحياء لدعاء الموتى ، ومتى هانت الحياة على أصحابها ، وإن استحلفهم الموتى بأصدق الحب وأبلغه في القلوب أثراً » .

ثم عدنا بعد أسابيع إلى أرض الوطن ، ولست أشك في أن صاحبي قد كان حدثني ببعض الهذيان ، ولم أفكر قط في أن أحقق حديثه ،

ولكنه هو فكر في ذلك وسعى إلىّ وألح علىّ وسار معي إلى صاحبتنا . ولكن ماذا ؟ إن صاحبتنا مريض وإن مرضه ثقيل ، وإن الأطباء يشفقون عليه أشد الإشفاق . قال صاحبي وقد خرجنا من عنده دون أن نتحدث إليه في شيء : ما أرى إلا أن الرسالة قد انتهت إليه من طريق غير طريق . ومع ذلك فسنعوده إذا كان الغد . ثم عدناه مرة ومرة ومرة وعرض له صاحبي ببعض الحديث فما شككنا في أنه قد كان من تلك السيدة على أمر . ثم استحال التعريض إلى تصريح فما شككنا في أن صاحبي قد قال حقاً ، ولكن صاحبي لم يبلغه الرسالة ، لأن الرسالة كانت قد سبقت إليه ، ولأنه لم يكن في حاجة إلى من يستعجله ، ولأننا لم نلبث إلا أياماً حتى شيعناه إلى مستقره الأخير .

ليت شعري أكان لغواً ما قال صاحبي ؟ ليت شعري أكان جدّاً ما قال صاحبي ؟ ليت شعري أأدركت نفس صاحبتنا تلك النفس المعلقة في غابة من غابات فرنسا على جبل من الجبال حول ذلك السيل الذي ينهر في قوة وعنف فيملاً الجو ضجيجاً وعجيجاً واصطخاباً ، ويتميز منه على ذلك الصوت المتصل الحزين الذي يعلن عن اللوعة ويعرب عن الشكاة .

ثأر بيرينيس

لست أدري كيف وصلت أخبار الدنيا إلى دار الموتى ، ولا كيف وصلت أخبار الموتى إلى أهل الدنيا . ولكن صاحبي حدثني حديثاً عجباً ، ولم يرد أن ينبئني كيف استقام له هذا الحديث ، زعم لي أن خلافاً عنيفاً أليماً ثار بين حبيبين في دار الموتى فأفسد الأمر بينهما إفساداً عظيماً كاد يستحيل إصلاحه ، لولا أن أديباً دخل بينهما فردهما إلى شيء من الصلح القلق والتوافق الموقوت .

وكان ذلك في اليوم العاشر من هذا الشهر ، بعد أن نزل إدوار الثامن عن ملك إنجلترا وما وراء البحار وإمبراطورية الهند لأخيه الملك الحديد . كان ذلك في الصباح أو في المساء ، وفي أى لحظة من لحظات النهار أو من لحظات الليل ، فقد زعموا أن ليس في دار الموتى ليل ولا نهار ، وإنما الزمان عندهم فكرة تعجيلها النفس ويتمثلها العقل ولا تصورها حركة الأرض ولا حركة الشمس ، ولا اضطراب كوكب من الكواكب ولا دوران فلك من الأفلاك .

كان هذا الخلاف بين هذين الحبيبين في لحظة من ذلك اليوم حين انتهى نبأ انحلال الأزمة البريطانية إلى دار الموتى ، وحين علم به تيتوس القيصر الإمبراطور وصاحبته بيرينيس ملكة فلسطين !

وأنت تعلم من غير شك أنهما هبطا إلى مستقرهما الأخير منذ تسعة عشر قرناً أو ما يقرب من تسعة عشر قرناً . فقد مات تيتوس القيصر الإمبراطور في أواخر القرن الأول للمسيح سنة إحدى وثمانين ، وماتت بيرينيس بعده بقليل . وإذا جارينا الشاعر الفرنسي العظيم راسين فقد ماتت حزناً عليه ، أو تعمدت الموت لتلحق به . لا يُحبرنا الشاعر بذلك . ولكنه ينبئنا في قصته الخالدة بأن بيرينيس كانت تريد الموت استجابة لآياس ، فعزم عليها عاشقها القيصر الإمبراطور لتبقي . وأندرها أنه لاحق بها إن ماتت وقاتل نفسه إن قتلت نفسها . وكانت الملكة الفلسطينية مؤثرة لحبيبها العظيم على نفسها ، فأثرت البقاء لاحقاً في البقاء ، بل إثارة لعاشقها به ، وعاشت لا لتنعم بالعيش بل لينعم الرومانيون بحياة قيصرهم الإمبراطور ، وأكبر الظن أن موت الإمبراطور قد يسر الأمر على حبيبته وأحلها مما قطعت على نفسها من العهود والمواثيق ، فأسرعت إلى الموت لاحقاً في الموت ، ولكن رغبة في لقاء خليلها ، حيث لا تثار الاعتراضات على حبهما في مجلس الشيوخ الروماني ، ولا في ملاعب التمثيل ولا في أسواق المدينة الخالدة . وأكبر الظن أن العاشقين التقياً مبهجين بهذا اللقاء ، فرحين بهذه السعادة الباقية التي لا تتاح للناس في هذه الحياة الفانية . وأكبر الظن أيضاً أنهما شغلا بحبهما عن كل شيء وعن كل إنسان ، وشغلا بحبهما عن شئون الناس خاصة ، لم يصرفا عنه لحدث من الأحداث ،

ولا عظيمة من العظائم ، بل لم يصرفا عنه لما كان يكتب عنهما المؤرخون في العصور القديمة أو العصور الحديثة . ولعلهما لم يصرفا عنه إلا مرة واحدة في القرن السابع عشر ، حين كتب راسين قصته الرائعة وقدمها إلى الملعب ، وحين كتب كورنى قصته البارعة وعرضها على النظارة ، وحين اختلف الناس في أمر هذين الشاعرين وفى أمر هاتين القصتين كما كانوا يختلفون فى أمرهما وفى آثارهما دائماً .

وقد كان تيتوس القيصر الإمبراطور أديباً ظريفاً ومثقفاً مترفاً ، وكان يحب الفن ويشغف بالأدب ويفتن بالفلسفة ، وكانت بيرينيس من أذكى بنات إسرائيل وأعظمهن حظاً من ثقافة ودقة ورقة وترف ، وقدرة على استئثار بعقول الرجال والاختلاب لألباب الملوك . فجاءت أن يكون اختلاف الناس فى راسين وكورنى وفى قصتهما قد شغلها لحظة عن حبهما الخالد وسعادتهما المتصلة ، ولكن المحقق — فيما يقول صاحبي — أنهما لم يلبثا أن عادا إلى ما كان فيه من الغزل والدعابة ، ومن الاستمتاع بنعيم الحب الذى لا ينغصه الصد ولا يفسده الهجر ولا تكدره وشاية الوشاة .

وقد كانت الثورة الفرنسية ، وكانت حروب نابليون ، وكانت الأحداث الجسام التى اتصلت بين الناس . وكانت الحرب الكبرى ، وكان ما كان بعد هذه الحرب ، والعاشقان لا يحفلان بشيء من ذلك ولا يأبهان له ولا يفكران فيه ، حتى كان يوم الخميس الماضى ،

وإذا هما يردان إلى أمور الناس ويشغلان بها ويتأثران بأنبائها أشد التأثير ، حتى تكاد الأسباب بينهما أن تنقطع ، وحتى توشك المودة بينهما أن تزول لولا أن تدخل هذا الأديب فاضطرهما إلى خطوة ، هي إلى الهدنة أقرب منها إلى الصلح ، وهي إلى المودعة والانتظار أقرب منها إلى المودة والصفاء ، وأنت بالطبع تعلم أن تيتوس قد عرف صاحبه الجميلة الخلابة في فلسطين حين كان مع أبيه يحاربان اليهود ويعيدانهم إلى طاعة روما . فأحبها وأحبته وهام بها وهامت به وكانت بينهما صلوات لهج بها الجند . وكثر فيها كلام أهل الشرق في فلسطين والشام ومصر . ولم يحفل العاشقان بلوم اللأئمين ولا سخط الساخطين ، وإنما مضى كل منهما في حبه لا يلوى على شيء ولا يقف عند غاية ، واجتهدت بيرينيس في أن تحجب سلطان الرومان إلى أهل مدينة القدس الثائرين فلم تفجح وأخطأها التوفيق كما أخطأ أخاها . فانحازت إلى الفاتحين وآثرت الحب على الوطن ، وابتهجت بظفر الرومان وعادت مع الظافرين إلى روما وسكنت دار تيتوس أثناء ولايته للعهد ، ولهج بذلك أهل روما وكثر فيه حديثهم واشتد له إنكارهم . فاضطر الإمبراطور إلى أن يأمر تيتوس ولي عهده بقطع هذه الصلة ونفى هذه العاشقة عن الأرض الإيطالية ، وأذعن ولي العهد لأمر أبيه وأخرج صاحبه إلى الشرق ، وأذعن لسلطان روما وقوانينها ، فلما مات أبوه وارتقى هو إلى العرش وظنت الملكة أن قد زالت المصاعب ومهدت

الطريق عادت إلى روما ولكنها لم تنظر من عاشقها الإمبراطور بشىء .

وقد كتب أحد المؤرخين الرومانيين يقول : « إن تيتوس الذى كان يحب بيرينيس كما كانت تحبه ، والذى كان قد أطمعها فى الزواج قد أخرجها من روما برغمه وبرغمها أيضاً » .

ومن هذه الحملة القصيرة التى كتبها المؤرخ الرومانى . بل من آخر هذه الحملة استقى راسين قصته الرائعة . فصور الصراع بين الحب والواجب أبرع تصوير وأروع ، ونصر الواجب الوطنى فى القصة كما نصره التاريخ أيضاً ، فقد كان القيصر الإمبراطور محباً للملكة فلسطين حباً ملأ قلبه وملك نفسه واستأثر بأهوائه وعواطفه ولكنه على ذلك لم يستطع أن يتخذها له زوجاً لأن قوانين روما لم تكن تسمح بهذا الزواج .

ولم يكن حب الملكة للإمبراطور هيناً ولا فاتراً ولا يسيراً ، ولكنها على ذلك قد أذعنت لسلطان الواجب وخضعت لقوانين روما ، وانصرفت عن هذا الزواج الذى عملت له وعاشت بالتفكير فيه والطموح إليه أعواماً طويلاً . وكان القيصر الإمبراطور يقدر حق القدر أنه يضحي فى سبيل القانون والواجب تضحية خطيرة لن يهملها التاريخ ولن تقصر الأجيال فى الانتفاع بها والإكبار لها واتخاذها موضوعاً للوعظة والاعتبار . وكانت الملكة فى حقيقة الأمر لا تفكر إلا فى نفسها

وفي حبها ولا تحفل بالقانون ولا بالواجب ولا بالتاريخ . ولكنها انتهت آخر الأمر إلى مثل ما انتهى إليه قيصر ، فضحت بالحب في سبيل الواجب والقانون وضربت للناس مثلاً قوياً في تصوير التضحية والإيثار .

قال صاحبي فلما انتهت إلى العاشقين في دار الموقى أنباء الأحداث الجسام التي حدثت في وندره ، نسيت بيرينيس روما وقوانينها ، وواجبات القيصر الإمبراطور وكل ما كان بينها وبين صاحبها من الحوار الرائع الذي صورته راسين ولم تذكر إلا شيئاً واحداً وهو أنها امرأة عاشقة ضحى بها خليلها في سبيل شيء آخر غير العشق . وأنت تعرف الغيرة إذا اضطربت نارها في قلوب النساء كيف تلهم كل شيء وكيف تمتنع على كل روية وتستعصى على كل تفكير . فقد ثارت إذن بيرينيس ثورة هائلة ، وحدثت كل ما كان بينها وبين صاحبها من حقائق الود ووثائقه ، وزعمت أن القيصر الإمبراطور لم يكن إلا جاحداً خائناً غادراً لا يرعى للحب حرمة ولا يرجو للوفاء وقاراً . وكانت من قبل تظن أن الواجب الاجتماعي فوق الواجب الفردي ، أو أن إخلاص الرجل لوطنه يجب أن يكون فوق إخلاصه لنفسه ولن يحب ، وأن الرجل الذي يضحي في سبيل الوطن بحياته خليق أن يضحي في سبيل الوطن بعواطفه وميوله وأهوائه ، فقبلت من عاشقها ما قبلت ، وآمنت بمثل ما كان يؤمن به من أن الوطن

فوق الأشخاص ، وأن الطاعة لقوانين روما فوق الطاعة لقوانين الحب والغرام . ولكنها رأت أن امرأة أخرى لم تكن ملكة ولا قريبة من الملكة قد صارت دولة فغلبتها . وقارنت بيرينيس بين الإمبراطورية الرومانية التي ضحى بها في سبيلها منذ تسعة عشر قرناً وبين الإمبراطورية البريطانية فراعتهما المقارنة وملأت قلبها غيظاً وحنقاً . فأين تقع الإمبراطورية الرومانية وملك قيصر من الإمبراطورية البريطانية وملك إدوارد الثامن ؟

ومع ذلك فقد ضحى إدوارد الثامن بالملك ونزل عن العرش ، وآثر صاحبه على ملك لم يتح لأحد مثله . فقد كان إدوارد الثامن إذن أصدق حباً وأخلص وفاء من تيتوس القيصر الإمبراطور ، وكانت صاحبه أعظم حظاً وأسعد طالعاً من بيرينيس ذات الحسن الرائع والجمال البارع . ومع ذلك فقد كانت بيرينيس أدنى إلى الشباب وأعظم حظاً من الجمال ، وكانت صاحبة عرش لا من عامة الناس ولا من أوساطهم ! فترى إلى نتيجة هذه المقارنة وإلى أثرها في قلب امرأة عاشقة غالية في العشق ، لا تعرف في الحب هواة ولا ليناً ، ولا تقبل فيه موادة ولا مصانعة .

وقد لقي القيصر الإمبراطور كثيراً من الهول وبذل كثيراً من الجهد ، واحتمل كثيراً من العناء ، ولم يستطع أن يوفق إلى إرضاء صاحبه ولا إلى استعطافها عليه واجتذابها إليه ، فقد صور لها أن

حاجة البريطانيين إلى ملكهم ليست كحاجة الرومانيين إلى إمبراطورهم ، لأن الملك في هذه العصور الحديثة رمز للسلطان ، يملك ولا يحكم ، فهو يستطيع أن يتخلى عن العرش إذا عجز عن النهوض بأثقاله دون أن يسىء إلى الوطن أو يعرض مصالحه للخطر والضياح ، على حين كان الإمبراطور الروماني يملك ويحكم ويدبر الأمر كله تدبيراً في دقائقه وجلالته ، فكان نزوله عن العرش أبعد أثراً في حياة الدولة من نزول الملوك المحدثين عن عروشهم .

وقد صور تيتوس لصاحبه أن فكرة الواجب فكرة مرنة تتغير مع الزمن وتتشكل بأشكال البيئات المختلفة ، وأن تصور المحدثين للواجب ليس كتصور القدماء له .

وقد عرض تيتوس على صاحبه أن تسعة عشر قرناً تكفى لتغيير آراء الناس في كل شيء ، ولتغيير ما يكون بين الفرد والجماعة من الصلات . فقد كانت الجماعة في العصور الأولى كل شيء ولم يكن الفرد شيئاً . فأما الآن فقد أخذ الأفراد يوجدون ويؤمنون بأنفسهم ، ويرون أن عليهم واجبات ويرون أيضاً أن لهم حقوقاً ، وهم مستعدون لأداء الواجبات ولكنهم غير مستعدين للنزول عن حقوقهم .

وقد عرض تيتوس على صاحبه أشياء أخرى لا نكاد نفرغ من إجمالها فضلاً عن تفصيلها ، ولكنه لم يستطع أن يقنعها ولا أن يردّها إلى الرضى والهدوء ، فهي كانت تسخر من هذا كله ، بل تسخط

على هذا كله ، وترى أنه تحكيم للعقل فيما لا ينبغي أن يحكم فيه العقل . تحكيم العقل فيما هو من شئون القلب وحده . وكان يزيد سخطها وثورتها ويملؤها غيظاً إلى غيظ وحنقاً إلى حنق أنها قد اتخذت بهذا الحب الكاذب نحو عشرة أعوام في الحياة الدنيا وتسعة عشر قرناً في الحياة الآخرة لم تشك فيه ولم ترتب بصاحبه ، ففتحته حبها وقلها وأخلصت له في الدنيا والآخرة ، وفي السر وفي الجهر ، ثم تبين لها في لحظة قصيرة جداً أنه لم يكن عاشقاً ولا صادقاً في الحب ، وإنما كان خادعاً ومخدوعاً في وقت واحد . وما هذا الحب الذي لا يضحى في سبيله بالممالك والعروش ؟ بل ما هذا الحب الذي يضحى به في سبيل الممالك والعروش ؟

ولست أدري أتذكر ذلك المنظر الرائع الذي يصور فيه راسين ثورة الملكة وغضبها وانصرافها عن القيصر الإمبراطور بعد أن استيأست منه ومن حبه ، وهي تعلن إليه أنها تفارقه لتلقى الموت . فقد أعادت بيرينيس هذا المنظر نفسه في دار الموتى ، وأعلنت إلى تيتوس مثل ما أعلنت إليه في روما ، وارتاع قيصر له كما ارتاع في الحياة الأولى ، لولا أن قهقهة عالية ردت العاشقين إلى صوابهما بعض الشيء ، سمعها فالتفتا فإذا فيلسوف أديب كان يسمع لهما ويعجب بهما ، وليس يلدرى صاحبي من أمر هذا الفيلسوف إلا أنه فرنسي محدث عاش بعد قصة راسين . وقد دهش العاشقان . لمكانه منهما ودهشا

لضحكه المتصل وقهقهته المستمرة ، ونظرا إليه في شيء من الوجوم ، ولكنه قال للملكة وهو يمضى في ضحكته : بم تنذرينه يا مولاتى ؟ أتندرينه بالموت فإنك ميتة ، أم تنذرينه بالحياة ! فكيف السبيل لك إلى استئناف الحياة ؟

هنالك سقط في أيدي العاشقين ، ولكن الفيلسوف لم يمهلهما ولم يخل بينهما وبين التفكير ، وإنما مضى في حديثه وضحكه معاً وهو يقول : « ولن تستطيعى يا مولاتى أن تهجرىه ولا أن تطيلى الإعراض عنه ، فقد اتصلت أسباب الحب بينكما في الحياة الأولى ، واستقبلتما هذه الحياة الثانية عاشقين ، فستظلان على ما كنتما عليه إلى آخر الدهر إن كان لدهر الموتى آخر . ستلتقيان فتختصمان حيناً ويصفو كلاكما لصاحبه حيناً آخر ، ولن ينفعكما ولن يضركما ما يختلف على الأحياء من الأحداث والخطوب . فالأحياء وحدهم هم الذين يتطورون ويتغيرون ؛ فأما نحن فقد قضى علينا ألا نتطور ولا نتغير لأننا استفدنا حظنا من التطور والتغير قبل أن نصل إلى هذه الدار . ولو أنى ملكت أمور الأموات والأحياء لقطعت الصلة بيننا وبين أهل الدنيا قطعاً . فما أكثر ما نعلم من أخبارهم فنحزن حين لا ينفع الحزن ، ونفرح حين لا يغنى الفرح . ما أكثر ما أعلم من أخبار الفلاسفة والأدباء . فأفرح لأنهم بلغوا ما لم أبلغ واستحدثوا ما لم أحدث واستكشفوا ما لم أستكشف . وأحزن لأنى عاجز عن أن

أشارك فيما يشاركون فيه وآتى بعض ما يأتون ، وأضيف إلى بعض ما يستحدثون .

حقاً لست أدرى كيف السبيل إلى ما نحن في حاجة إليه من الراحة التي لن نظفر بها ما دامت أخبار الأرض تهبط إلينا أو تصعد ، فلست أدرى أين نحن بالقياس إلى الأرض ، أمرتفعون في مكان شاهق أم منخفضون في مكان سحيق ، ومع ذلك فإيحزنك يا مولاتي . لقد كنت تبتغين حب قيصر فقد ظفرت به في الحياة وقد ظفرت به بعد الموت ، فرق الدهر بينكما عامين ثم جمعكما الموت إلى الأبد . أفتعلمين ما خطب العاشقين الذين جمعت الحياة بينهما الآن ؟ أوأثقة أنت بأنهما سعيدان بهذا الحب ؟ أمطمئنة أنت إلى أن حياتهما لن تتعرض لسأم ولا ندم ولا اختلاف ولا افتراق ؟ كلا يا سيدتي ، انتظري وتمهلي ولا تغاضبي صديقك ولا تتنكري له ، حتى إذا أقبل هذان العاشقان بعد حياة طويلة ورأيتهما هنا ينعمان بمثل ما تنعمان به من الحب ، ويسعدان بمثل ما تسعدان به من الود ، فهناك وهناك فحسب ، تستطيعين أن تغطييهما وتحسديهما . وهناك ، وهناك فحسب ، تستطيعين أن تظني أنهما كانا أحسن منكما حظاً . ومع ذلك فلم لا تقدرين أن ظفر هذه السيدة بما لم تظفري به وانتصارها على قلب صاحبها واستئثارها به من دون العرش ، إنما هو انتصار لك وأخذ بشارك من الرجل الذي غالبك فغلبك ، وطاولك فكان له عليك الطول .

لم تفكرين في نفسك وحدك ، وفي خليلك وحده ، ولا تفكرين في نفسك على أنك رمز للمرأة ، وفي خليلك على أنه رمز للرجل . فكري على هذا النحو يا مولاتي يهن عليك الخطب ويسهل عليك الأمر ، ويمكن ظفر هذه السيدة المحدثه ظفراً لك أنت وانتصارها انتصاراً لك أنت ، ويتحول حزنك سروراً وغضبك رضى . فكري على هذا النحو ترى أن هذه السيدة إنما تأرت لك ولم تستأثر دونك بالانتصار . ثم فكري آخر الأمر في أن انتصار هذه السيدة في عرف الأحياء لا يتم حتى يسجله التاريخ ويتناوله الأدب شعراً ونثراً ، فيصوغه المؤرخون كما صاغ المؤرخ الرومان قصتكما في هذه الحملة القصيرة الرائعة ، ويصوغه الأدباء كما صاغه راسين في آيته البيانية الخالدة ، وكما صاغه كورنى في قصته البائسة التعسة ، ويختلف الناس في أمر الأدباء الذين يصوغونه كما اختلفوا في أمر الشعارين الفرنسيين ، ويتناقل الناس شعر الأدباء فيهما فيدرسوه في المدارس ويعرضوه في الملاعب كما يدرسون قصة راسين ، وكما يعرضونها على النظارة مرات في كل عام وفي جميع أقطار الأرض ، وبلغات مختلفة وعلى أنحاء متباينة .

إن خلود كما يا سيدتى محقق واقع ، ضمنه التاريخ وضمنه الشعر وضمنه الأدب عامة وأصبح جزءاً من تراث الإنسانية ، فانعمى بذلك واطمئنى إليه ولا تغضبى ولا تثورى إلا يوم ترين البطلين الجديدين

قد ظفرا بمثل ما ظفرتما به من الخلود . قالت بيرينيس ، وقد سكت عنها الغضب ، وثابت إليها دعايتها القديمة فتضاحكت متهاكمة . قالت : « فكم من الأعوام تريد أن أنتظر ؟ » قال الأديب الفيلسوف : « بل كم من القرون يا سيدتى ، فقد مثلت قصة راسين بعد أن حدثت لكما الحادثة بأكثر من ستة عشر قرناً » . قالت بيرينيس : فتريدنى على أن أصبر على هذا الإثم ستة عشر قرناً ؟ قال تيتوس القيصر الإمبراطور : وأين تقع ستة عشر قرناً من الأبد الذى لا يفنى ؟

ثم أقبل نحو صاحبتة مبتسماً وتلقته صاحبتة مبتسمة مبتهجة ، وقد عفت عنه وأسمحت له ، وشملهما الفيلسوف الأديب بنظرة ساخرة يملؤها الإشفاق والحنان وهو يقول : « حقاً إن الإنسان لسخيف حياً وميتاً » .

قلت لصاحبي : ما أظن فيلسوفك هذا إلا فولتير أو أناطول فرانس .

الخيال الطارق

أقبل صاحبي وجه النهار مرتاعاً حائل اللون ، شاحب الوجه ،
حائر الطرف ، طائر اللب ، كأنما ألم به طائف من الجن فروعه
ترويعاً ، وأخرجه عن ذلك الطور الهادئ الرزين الذي كنت أعرفه
منه إذا لقيته فتحدثت إليه ، واستمعت لأحاديثه المطمئنة العذبة
الخصبة .

أقبل مرتاعاً لا يكاد يبين إذا تحدث أو همَّ بالحديث ، بل
لا يكاد يستقر في مجلس ، بل لا يكاد يمسك جسمه من رعدة
كانت تلم به من حين إلى حين فهزه هزاً عنيفاً ، وتذكر بقول ذلك
الشاعر القديم :

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بالله القطر
وأشهد لقد أنفقت كثيراً من الجهد ، واصطنعت فنوناً من الحيلة ،
لأرده إلى ما ألفت فيه من دعة وأمن وهدوء ، ولقد افتقدت في تلك
الساعة بعض هؤلاء الشيوخ الذين يتلون العزائم والرقى ، بعد أن أخفقت
أو كدت أخفق فيما كنت أحاول من رده إلى الوقار والصواب .
ولكني ظفرت آخر الأمر بما كنت أحاول ، واستطعت أن أتحدث
إلى صاحبي ، وأن أسأله عن مصدر هذا الاضطراب العنيف

الذى أصابه وما عرفته عرضة لاضطراب يصيب العقل أو يصيب الجسم . قال وهو ذاهل أو كالذاهل : لثم هذا على أبى العلاء أيها الصديق ، فلولا أنى نظرت فى كتاب من كتبه آخر الليل ، لأذود به هذا الأرق الذى ألح على إلحاحاً لما أصابنى ما ترى ، بل لما أصابنى ما لم تر من تلك الأهوال التى ألمت بى ، واصطلحت على حتى نفرتنى من دارى وأزعجتنى عن أهلى ، ودفعتنى إليك فى هذه الساعة التى لم أعود أن أسعى فيها إليك . وثق بأنى قد خرجت من دارى معترماً ألا أعود إليها ، وقد أمرت أهلى أن يلتمسوا لنا داراً أخرى ، وأزمت الرحلة عن القاهرة أياماً ، حتى إذا تم لهم ما أريد من التحول عن هذه الدار الموبوءة ، عدت إليهم فى دارنا الجديدة ، لعلنى أن أجد فيها ما أنا فى حاجة إليه من الدعة وراحة البال . قلت : « ما أراك إلا مريضاً تحمل مرضك على أبى العلاء وتكلفه من ذلك ما لم يقترف ، وتكلف أهلك من آثار هذا المرض شططاً ، ومع أنى لم أعرف بعد هذه الأهوال التى ألمت بك فأزعجتك عن دارك ودفعتك إلى ما تحاول من فراق القاهرة ، فلست أرى بأساً بهذا الرحيل فقد طال مقامك فى مدينتنا ، وقد احتملت من الجهد والعناء فى عملك ما يضىئ الأصدقاء الأقوياء ، فكيف برجل عليل ضئيل مثلك ، فارحل مصاحباً ولكن حدثنى عما ألم بك من الهول » ؟ قال : « مصدره رسالة الغفران يا سيدى ، فليت أبا العلاء لم يكتب رسالة الغفران »

قلت: « لا تقل هذا ولا تكن أثراً فإن لغيرك في رسالة العفران لذة ومتاعاً ، وإذا كانت قد سلطت عليك الهول الذي لم أعرفه بعد ، فإنها قد أتاحت لقوم آخرين في الشرق والغرب من الشهرة وبعد الصوت ما لم يسلط عليهم هولا من الأهوال ، ولم يغر بهم خطباً من الخطوب . ولكن هات حديثك » . قال : « ما أشك في أن أبا العلاء كان مجنوناً حين كتب هذه الرسالة » . قلت: « رب جنون خير من العقل ، ولكن هات حديثك » . قال : أتذكر هذا السخف الذي أغرق فيه إغراقاً حين ذكر هذين البيتين القديمين من شعر النمر بن تولب :

ألم بصحبتى وهم هجوع خيال طارق من أم حصن
لها ما تشهى عسلا مصفى إذا شئت وحوارى بسمن

قلت : « هذا من خير ما في الرسالة . وأى بأس عليه من أن يفترض أن الشاعر قد وضع مكان حصن في البيت الأول اسماً آخر كجزء أو حفص أو عمرو ، ثم يلائم بين هذا الاسم وبين القافية في البيت الثاني ، فهذا نوع من العبث المباح الذي لا يسوء أحداً ، وهو مع ذلك يدرب الذاكرة ويظهر شيئاً من المقدرة اللغوية التي يحرص العلماء والأدباء على إظهارها » . قال: أنت الذي يزعم أن هذا العبث لا يسوء أحداً ، وما رأيك في أنه قد ساءنى وجشمنى ما رأيت وما لم تر من الأهوال والخطوب . فقد أراد سوء الحظ أن أنظر في هذا الكتاب ، وأن أقف عند هذا العبث ، فأفكر في هذه الخيالات التي

كانت تطرق المحبين والشعراء منهم بنوع خاص ، والتي كانت إذا طرقت هؤلاء الشعراء أنطقهم بما تعرف وما لا تعرف من رائع الشعر وبارع الكلام . وأغرقت في هذا التفكير وجعلت أستعين بالذاكرة على استحضار شيء من الشعر القديم الذي قاله الشعراء في الخيال الطارق والطيف الملم . ثم جعلت أسخر من أبي العلاء ومن جفاء طبعه وخشونة مزاجه ، وجعلت أرثى لأم حصن هذه التي عبث الشاعر بها هذا العبث ، فلم يترك اسمها حيث وضعه النمر بن تولب ، وإنما حذفه وأخذ يضع مكانه أسماء أخرى بعدد حروف المعجم ، ولو أنه كان رقيق القلب دقيق الحس ممتاز الشعور رقيقاً بالغانيات لما أزعج أم حصن عن مكانها ، ولما أقلقها عن موضعها ، ولكنه رجل غليظ لا علم له بالحب ، ولا حظ له من الرقة ، ولا معرفة له بحسن معاشره النساء .

وإني لفي ذلك وإذا أنا أحس كأن الأرض تدور تحت قدمي ، وكأن كل شيء يضطرب من حولي ، ولا أكاد ألتفت إلى ذلك وأفكر فيه حتى يهدأ من حولي كل شيء ، وإذا شخص جميل قد قام مني غير بعيد وهو ينظر إلى نظرة عطف ، وعلى وجهه غشاء من كآبة حلوة ، وعلى ثغره ابتسامة كأنها ابتسامة الرضى ، ولكني لا أعرف شيئاً أصدق منها تصويراً للحزن والأسى ، وتمثيلاً للوعة والحسرة ، ولست أدرى كيف لم يرعني مقام هذا الشخص الجميل ، فلم أظهر

فزعاً ولا اضطراباً ؛ وإنما أنست إليه . وحقت النظر فيه ، فتبينت فتاة غضة الشباب ، رائعة الجمال ، لولا أن شبابها يوشك أن يكون وهماً ، ولولا أن جمالها يوشك أن يكون خيلاً ، تبينت شخصاً حياً متحركاً نصيراً ، ولكنه على ذلك لا يخلو من شيء يشبه الموت ، ومن شيء يشبه السكون ، ومن شيء يشبه الذبول . وهو على هذا كله يذكرني بشخص كنت آلفه وبألفني . وكنت أكبره ويكبرني ، وقد فقدته منذ حين . فجزعت عليه جزعاً شديداً ، وكثيراً ما سألت نفسي أتراها قد ذكرني قبل أن تلج باب الموت .

وإني لأنظر إلى هذا الشخص المائل وإن هذه الخواطر لتمر أمام نفسي وادعة كأنها السحاب الرقيق ، وإذا أنا أسمع صوتاً رقيقاً خافتاً حلواً يسعى إلى سعياً خفياً من ناحية هذا الشخص المائل غير بعيد . وإذا هذا الصوت يحمل إلى تحية عذبة هي التي كنت أسمعها من صديقتي حين كنت ألقاها وجه النهار ، وما أكثر ما كنت ألقاها وجه النهار: أصبح بخير يا سيدى ، فأجيب أصبحى بخير يا سيدتى . إنك تعرفنى أو تكاد تعرفنى ، إنك تذكرنى وتسأل نفسك الآن كما كنت تسألها من قبل ، أذكرتك حين فارقت الحياة وودعت الأحياء ؟ نعم يا سيدى قد ذكرتك وألححت فى ذكرك ، وكلفت من يقرأ تحيتى عليك ، ولولا الحياء لكلفت من يدعوك لزيارتى قبل أن أموت ولكنى لم أفعل . ولم يعرض على ذلك أحد من الذين كانوا يحيطون

بسرير الموت ، على أنى لست آسفة فإنى لم أخسر شيئاً ، لأنى لم أفارق أحداً من كنت أحب لقاءهم فى تلك الحياة ، إنما أنا أراهم وأسعى بينهم وأتحدث إلى نفوسهم وأسمع منها ، وكل ما فقدته إنما هى هذه الأصوات التى كنت أسمعها ، وهذه الأيدى التى كنت أصافحها . وثق بأنها لا تعدل شيئاً حين أقيسها إلى ما أسمع الآن من أحاديث الضمائر ونجوى النفوس . وما كنت لأتراءى لك الآن لولا أنك أغرقت فى ذكر الخيال واستحضار الخيالات . ولست أخفى عليك أنى كنت أريد حين تراءيت لك أن أداعبك بعض الشيء ، فلا تظن أن الدعابة مقصورة على الأحياء ، فقد يأخذ الموتى من الدعابة بنصيب أيضاً . كنت أريد أن أترأى لك على أنى أم حصن صاحبة النمرين تولب ، وأن أشكر لك عطفك علىّ ، ورفقك بى ، ولومك لأبى العلاء . ولكنى لم أستطع أن أخدعك لأنى لم أعود خداعك أثناء الحياة . ثم لأنى إنما أقبلت إلى هذا المكان لألقى فى روعك رسالة كنت أريد أن تبلغها عنى . وكنت أريد أن ألقياها إليك كما تلقى الرسائل إلى الناس فى الأحلام . ولكنى رأيتك يقظان تنظر فى هذا الكتاب فانتظرت لعل النوم أن يسعى إليك ، ثم رأيتك تذكر الخيال وتستحضر الأطياف فتراءيت لك . وهل أنا إلا خيال أو طيف ؟ لا تطل النظر إلىّ ولا تقل شيئاً فإن نظر الأحياء يؤذنى ، وإن أصوات الأحياء تثقل علىّ ، ولكن اسمع منى ولتتحدث

نفسك إلىّ إذا لم يكن لك بد من حديث ، وإنى لأعلم أنك تريد أن تسألنى كيف أتحدث إليك بصوت يشبه صوت الأحياء ، وأشفق مع ذلك من سماع صوتك . فأنا لا أتحدث إليك ، بصوت يستطيع غيرك أن يسمعه ، إنما أنت الذى يمنح هذا الصوت قوته وتشخيصه ، ولو أن فى هذه الغرفة قوماً غيرك لما رأوا من شخص ما ترى ، ولما سمعوا من صوتى ما تسمع ، ولكن أصغ إلىّ فإنى أحس مقدم النهار ، وإنى أكره هذا الضوء الذى يغمر الكون حين تشرق الشمس ، والذى كنت أحبه أشد الحب أثناء الحياة ، والذى لم أحزن على شيء حزنى على فراقه قبل أن أموت ، والذى لم أتسل عن شيء كما تسليت عنه الآن .

أصغ إلىّ فإنى أريد أن ألقى إليك رسالتى ، وأن أنصرف عنك قبل أن يهجم ضوء النهار فيبدد ظلمة الليل ، وإنى لحريصة على أن ألقاك ، فإن كان لقاؤى يرضيك الآن كما كان يرضيك من قبل ، فانتبه فرصة كهذه الفرصة ، فى ساعة كهذه الساعة ، وانظر فى الكتاب وأطل التفكير فيه ، فقد أستجيب لدعائك حينئذ . ثم سكت هذا الصوت قليلا ، واستأنف حديثه الحلوى المر فقال : ليس السل وحده هو الذى قتلنى ، وإنما قتلنى معه الحب أيضاً ، فقد تذكر أن زوجى فارقنى قبل أن أموت بأشهر ، لأن مرضى المتصل قد ثقل عليه ، وقد تذكر أنى كنت أظهر تجلداً وعزاء ، وقد تعلم أنى كنت

أخفى من ذلك غير ما أضمر ، وأنت كنت تشفق علىّ مما كنت أخفيه . وكنت تود لو استطعت أن تسليني عن بعض ما أجد ، فاعلم الآن ألى حين بقلّت علىّ العلة ، وتورمت أطرافى ، ورأى الطبيب أن ينزع ذلك الخاتم الذى كان آخر ما بقى من زوجى ، لم أشك فى أنه سينزع معه الحياة من هذا الجسم المريض ، ولم أكره ذلك ، وأى بأس من مفارقة العلة واليأس . فأبلغ زوجى ألى فارت الحياة وأنا أحبه ، وأن مقامى فى هذه الأرض بعد الموت لن يطول ، وأنه خليق أن يعلم ألى أراه وأرافقه ، وأنه خليق أن يرعى ذلك وأن يذكرنى فى شىء من الخير والرفق والوفاء ، حتى إذا آن لهذا الخيال أن يصعد فى طبقات الجو ، وأن يمضى إلى ذلك العالم الذى تعيش فيه خيالات الموتى ، وأن تنقطع الصلة بينه وبين هذه الأرض ، فلزوجى أن ينسى ، ولزوجى أن يقطع ما بين نفسه وبينى من الأسباب . قالت ذلك ثم نظرت إلى نظرة قوية حادة ، لم أستطع أن أثبت لها ، وإنما أطرقت برأسى إلى الأرض خائفاً وجلاً . ثم رفعت رأسى بعد ذلك ونظرت فلم أر شيئاً ، وتسمعت فلم ينته إلىّ صوت وإنما هى رسالة الغفران مبسطة أمامى أرى فيها عبت أبى العلاء حول شعر النمر بن تولب . هنالك أخذنى هلع ما أعرف ألى أحسست مثله من قبل ، وملكنى روع كاد يدفعنى إلى الصياح لولا بقية من عقل ، وفصل من حياء ، ففارقت غرفى وهبطت إلى الحديقة أهيم فيها

أنتظر مطلع النهار ، حتى إذا ارتفعت الشمس قليلاً أوصيت أهلي بما أوصيت وأسرت إليك . أترى بعد ذلك أن سحق أبي العلاء لم يسؤ أحداً ؟ » . قال ذلك ثم أخذته رعدة غريبة أشفقت أن ترده إلى مثل ما كان عليه من الوجل والاضطراب ، فما زلت به حتى رددت إليه الأمن والهدوء وقلت مداعباً : ويحك ! ألم تقرأ كتاب أناطول فرانس ذلك الذى سماه جريمة سلفستر بونار ؟ إن فيه قصة إن لم تكن تشبه قصتك هذه من كل وجه ، فإنها قريبة منها إلى حد ما ، وما أرى إلا أنك قد ذكرت صاحبك هذه فى ضوء النهار أو فى ظلمة الليل ، حتى إذا أخذت تنظر كتابك أخذك هذا النوم الخفيف الذى تراءى فيه الأشباح والخيالات . قال مغضباً : أقسم لك ما كنت نائماً ولا قريباً من النائم ، وإنما كنت يقظان أشد ما يكون الناس يقظة وانتباهاً ، ولكن ما نفع الحديث معك فى هذا وأنت لا تؤمن بعالم الخيال ؟ قلت : فإنى أشفق عليك من إيمانك هذا فقد تستطيع أن تتحول عن دارك ، وأن تفارق القاهرة ، وأن تنزل من الأرض أى منزل شئت ، فسيترأى لك هذا الخيال كلما خطر له أن يتحدث إليك ، أو أن يحملك رسالة إلى الأحياء . وماذا تريد الآن أن تصنع برسالتك هذه ؟ أتحملها إلى من أنت مكلف أن تحملها إليه أم تكتتمها ؟ فإن تكن الأولى فإذا تصنع إن لقيك بالوم لأنك تعرض لما لا ينبغى لك أن تدخل فيه ! وإن تكن الثانية فإذا تصنع

١٧٧

إن ألمّ بك الخيال وسألك عن تبليغ الرسالة وتأدية الأمانة والوفاء
بالعهد ؟ هنالك نهض صاحبى مغاضباً وهو يقول : ما أشد بغضى
للذين يمزحون فى غير أوقات المزاح .

ثم انصرف عني وأنا شديد الإشفاق عليه وعلى كثير من أمثاله
الذين تطرقهم هذه الخيالات فتملأ قلوب بعضهم أمناً ورضى ، وتملأ
قلوب بعضهم الآخر خوفاً وروعاً .

طيف

ما كان أعذب هذا الصوت الذى كان يبلغ أذنيها من بعيد ،
من بعيد جداً ، فيملاً قلبها التأثير المضطرب راحة وأمناً وهدوءاً ، ويملاً
نفسها المفجوعة الجزعة طمأنينة ودعة واستقراراً .

وما كان أجمل هذا الطيف الضئيل الذى كان يترأى لها ثم
لا يلبث أن يستخفى ليعود فيتراءى لها مرة أخرى . ولا تكاد تحقق
النظر فيه حتى ترى صورة كانت أحب إليها من كل صورة ،
وتبين شخصاً كان أثر عندها من كل شخص ، وتحس كأنها
وجدت شيئاً عزيزاً فقدته منذ حين قريب ، وما كان أغرب هذا
الشعور الذى كانت تجده فى أثناء ذلك ، فقد كانت تحس حزناً
يشتد على قلبها حتى يوشك أن يفطره ، ثم تجد نعمة وراحة تردان
عنها هذا الحزن رداً ثم تجد بشراً يغمر قلبها ونفسها وعقلها ، ويكاد
يخرجها عن طورها ، ويبلغ بها شيئاً يشبه الجنون ، ثم تحس كأنها
تفقد من سكرات لا عهد لها بها ، وإذا دموع غزار تنال من عينيها
لم تتعودا البكاء . وكانت تجاهد لتسترد صوابها الذى شرد عنها ،
ورشدتها الذى لم يبعد عهداً به ، ولكنها لم تكن تبلغ من ذلك
ما تريد ، إنما هو الصوت العذب يأتيها من بعيد ، من بعيد جداً ،

فيملاً أذنيها ، والطيف الجميل يترأى لها من بعيد ، من بعيد جداً ،
 فيملاً عينيها ، وإذا قلبها يضطرب بين الثورة والهدوء ، ونفسها تضطرب
 بين الجزع والبشر ، وعقلها يضطرب بين الاستقرار والجنون ،
 وفي الحق أنها لم تعلم أكانت يقظة أم نائمة حين تبدل من حولها كل
 شيء فجاءة ومن غير تمهيد ولا إعداد ، فانجابت تلك الظلمات
 الكثاف التي كانت تملأ غرفتها ، وطردت تلك الوحدة المطلقة
 التي كانت تحيط بشخصها وغرفها وبيتها ، وتملاً الطبيعة من حولها
 سكوناً خفيفاً وروعة مثيرة للقلق . وغمر نفسها وغرفها نور لا سبيل
 إلى حده ولا الإحاطة به ، ثم نظرت فإذا غرفتها نفسها تتبدل ، وإذا
 هي ترى كأنها في مكان لم تر نفسها فيه من قبل ، ولكن يخيل إليها
 أن لها به عهداً ما ، بعيد الأرجاء لا يبلغ الطرف له آخر مهما يدر
 في نواحيه ، قد قامت فيه ألوان مختلفة أشد الاختلاف من الشجر ،
 ونسقت فيه ضروب متباينة أشد التباين من الزهر ، وتفرق فيه نسيم
 هادئ خفيف . كأنما تملؤه الحياة ، وجرت فيه غدران دقاق شديدة
 الصفاء ، كثيرة الالتواء ، وانطلقت فيه أصوات الطير بغناء جميل
 يملؤه السحر والبهجة ، ويتردد فيه من حين إلى حين حنان حزين .

رأت نفسها فجاءة في هذا المكان ، وأحاط بها فجاءة هذا الجمال
 الغريب الذي لا يحده ولا يوصف ، ولو قد خلى بينها وبين نفسها
 وعقلها لاجتهدت في أن تعرفه وتبين أمره ، وفي أن تبحث وتفكر

لتعرف أين هي ؟ وماذا ترى ؟ وماذا تجد ؟ ولكنها لم تفرغ لنفسها لحظة ، ولا بعض لحظة وإنما كان يشغلها عن نفسها هذا الصوت العذب البعيد الذى كان يملأ أذنيها ، وهذا الطيف الحلو البعيد الذى كان يملأ عينيها ، وهذه الألوان المختلفة من الشعور التى كانت تملك قلبها ونفسها وعقلها حين تسمع الصوت العذب وترى الطيف الجميل .

وكان أشد ما يؤثر فى نفسها مما يحمل الصوت إلى أذنيها هذا اللفظ الذى ظنت أنها لن تسمعه من مصدره منذ انتزع الموت منها فى أشد قسوة وعنف ابنتها العزيزة ، لفظ « أماه ! »

وكان أشد ما يؤثر فى نفسها حين كانت ترى ذلك الطيف ، هذه الابتسامة الحلوة التى عرفتها فى أثناء مرض ابنتها ، والتى كانت تظهر على ذلك الوجه الشاحب الكئيب ، فتصور الحب والبر وتصور الدعابة والتعزية معاً .

كانت المسكينة تظن أنها لن تسمع ذلك الصوت ولن ترى هذه الابتسامة ، فسل عن حزنها العميق ، وعن سرورها الفياض ، حين كانت تسمع وترى ما ظنت أن قد قطعت بينها وبينه الأسباب .

وكان صوت ابنتها يحمل إليها من بعيد ، من بعيد جداً ألفاظاً حلوة فيها تسلية وتعزية ، ويحدثها أحاديث تصور البهجة والدعة والنعيم . وكانت ابتسامات ابنتها تحمل إلى نفسها هذه المعانى التى أشرت إليها آنفاً ، ومعانى أخرى جديدة تدل على أن ابنتها راضية ناعمة

مطمئنة ، وكأنما كانت تسمع وترى من ابنتها ما يلتقى فى نفسها أن الفتاة سعيدة مبتهجة لا تريد مهما يكن من شيء أن تخرج من سعادتها وإبتهاجها ، وكأنما كانت تقول لأمها لا تحدثينى عن العودة إليكم ولا تطليبيها إلىّ ، فلو قد خيرت لما اخترتها ، ولو قد خلى بينى وبينها لما رغبت فيها ، ولا ملت إليها ، بل لكان انصرافى عنها ونفورى منها أعظم جداً مما تقدرين .

وكان هذا الحديث يلذع قلب الأم المسكينة أشد اللذع ويؤذيه أعظم الإيذاء ، ويثير فيه شيئاً من الغيظ ، فكانت تهم بأن تعاتب ابنتها ، ولكن الفتاة لم تكن تمهلها وإنما كانت ترسل إليها فى صوتها العذب وابتسامها الحلو معانى تصور التعزية والتسلية والتشجيع ، وتصور فوق ذلك الحب والعطف والثناء . وكأن الفتاة كانت تقول لأمها إني أرثى لك مما تجددين ولو استطعت لمحوت الحزن من قبلك محواً ولرددت إليه حظاً من أمن ونصيبة من دعة ، ولكنى لا أستطيع ، فلا بد للكتاب من أن يبلغ أجله ولا بد لقوانين الحياة والموت من أن تنتهى إلى غايتها ، فقد قضى على الناس أن يموت منهم من يموت ، ويحيا منهم من يحيا ، وأن تكون الذكرى هى الصلة بين أولئك وهؤلاء ، وأن يكون فى الذكرى كثير من الحزن والألم ، وقليل من الراحة والدعة وأن تعمل الأيام عملها على كرّ النهار ومرّ الليل ، فيسعى العزاء إلى النفوس شيئاً فشيئاً ، فيقرها ويهدئها ولعله ينتهى بها إلى النسيان .

وكانت الفتاة ترسل إلى أمها في صوتها العذب وابتسامها الحلو
أحاديث أخرى تقول فيها إنى لم أذك الليلة معزية عن فقدى ، فأنا
أعلم أن أوان هذا العزاء لم يأن بعد ، وأنا أعلم أن للحزن أجلاً يجب
أن يبلغه ، وأن للموتى على الأحياء حقوقاً يجب أن تؤدى إليهم ،
ولكن رأيتك صباح اليوم موهة ملهة ، مهدمة محطة قد فطر الجزع
قلبك تفطيراً ، وفرق الملح نفسك تفريقاً ، فأشفقت عليك ورثيت
لك ، وأقبلت أرد على قلبك المكلوم بعض الدعة وعلى نفسك الثائرة
بعض الهدوء .

رأيتك صباح اليوم حين أقبلت على قبري تزورينه فراعك ما رأيت
أو راعك ما لم ترى .

وارحمته لك أيها الأم النعسة ! ماذا كنت تظنين أنك ستري ؟
ألم تسمعى أحاديث الموتى ؟ ألم تسمعى أحاديث القبور ؟ ألم تعلمى
أن الأجسام بعد أن تفارقها النفوس توارى فى التراب ، فيهن منها
ما كان عزيزاً ويهمل منها ما كان مصوناً كريماً . ألم تعلمى أن
قبور المصريين تنبت فى الصحراء مهملة شعثاً فى أكثر الأحيان ، لأن
أصحاب القبور من الموتى لا يحفلون بقبورهم ولا يعينهم أن تقوم فى
الصحراء الغبراء أو فى الحديقة الغناء إنما هم عن هذا كله فى شغل
بما ادخر الله لهم وبما ادخروا هم لأنفسهم من وراء القبور . ولأن نظرة
الأحياء إلى القبور ليست أدنى إلى الابتسام والبهجة من نظرة الموتى ،

ولإنما هي نظرة حزينة كثيفة تلاثم حزن الصحراء وكآبتها . فهم لا يريدون أن يزينوا الموت ولا أن يسبغوا عليه ظلاً من جمال الدنيا . وإنما هم يفهمون الموت فهماً قاسياً كالموت نفسه . ولو أنى عرفت أنك ستسعين لزياراتي حيث تظنين أنى أقيم من هذا القبر المهمل في الصحراء لحدلتك عن هذه الزيارة تخديلاً ، فأنا أعلم أن قلبك لا يقوى عليها ولا يستطيع أن ينهض بأثقالها وأثقال ما تثير من الحزن والأسى . ولأنى أعلم ما لا تعلمين ، أعلم أن الموتى لا يزارون في القبور ، فليس منهم في القبور إلا أقلهم استحقاقاً للزيارة ، إنما يزارون حيث عاشوا وحيث عملوا وحيث اضطربوا للحياة ومشغل الحياة . إنما يزارون حيث يذكرون ، إنما يزارون في نفوس الذين يحبونهم من الأحياء ، فهم يؤثرون أن يتخذوا من نفوس المحبين الأحياء مقاماً . إذا أحببت أن تزوريني أيها الأم العزيرة الحزينة البائسة فلا تسعى إلى الصحراء ، ولا تقف عند هذا القبر ولا تظنى أنك ستلقينى هناك ولكن اذكرينى فسأحضرك كلما ذكرتنى وسترين منى في الذكرى أكثر ألف مرة ومرة مما ترين عند القبر لأنك لا ترين عند القبر إلا أحجاراً ورمالاً . وأنا أعلم أن حياة الأحياء غرور ، وأن للظواهر فيها تأثيراً عميقاً بعيد المدى ، وأنهم لا يستطيعون أن يفهموا الوفاء لنا إلا أن يزوروا قبورنا ، فافعلى إن لم تستطعى أن تخلصى من تأثير هذه الظواهر ، ولكن اتخذى مكان قلبك الضعيف الرحيم قلباً جلدأ قوياً

صبوراً . فإنك لا تعلمين وما أحب لك أن تعلمى ما وراء هذه الأحجار وما تحت هذه الرمال . صدقيني أيتها الأم العزيزة الحزينة لست أحب لك هذه الزيارة وإنما أحب لك ولنفسى هذه الذكرى الحلوة الهادئة . وإذا لم يكن بد من ساعات تشتد فيها الصلة بينك وبينى وإذا لم يكن بد من أن تحسى كأنى قريبة منك وكأنك قريبة منى فليدعنى قلبك الضعيف الرحيم إذا تقدم الليل شيئاً . فإننا نحن الموتى نستجيب مسرعين لدعوة القلوب الضعيفة الرحيمة ولا سيما قلوب الأمهات .

ليدعنى قلبك إذا تقدم الليل كما دعانى حين تقدمت هذه الليلة . ألم ترى كيف استجبت لدعائه؟ ألا تحسین قربى منك ؟ ألا تجدین امتلاء قلبك ونفesk بى ؟ أنعمت بقربى فى الحياة كما تنعمين به الآن وقد فرق بيننا الموت ؟ ولكن دعاء آخر يبلغنى أيتها الأم العزيزة ، وإنه دعاء لا تفهمينه ولا تستطيعين أن تعلمى من أين يأتينى ولا كيف يأتينى .

انظرى . إن النجوم تسرع إلى الأفول ويجب أن أسرع معها إلى حيث لا تعلمين ، إن نفوسنا لا تحسن مناجاة الأحياء حين تشرق الأرض بنور الشمس ، فهى تغيب عنها الذكرى فى هذه المناجاة .

إلى اللقاء أيتها الأم العزيزة الحزينة فأسأستجيب لك كلما دعانى قلبك ؛ ولكن أيدعنى قلبك كثيراً .

وتنظر الأم الحزينة فإذا الطيف ينأى حتى ينمحي ، وتسمع
فإذا الصوت ينأى حتى ينقطع ثم تلتفت فإذا كل شيء من حولها قد
عاد كهيمته حين أقبلت على غرفتها وقد تقدم الليل ، إلا أن نور الصباح
قد دخل الغرفة فأفاض على جدرانها وعلى ما فيها من الأثاث كآبة
لا يعلم أجاءت منه أم جاءت من هذه النفس الحزينة التي ترى به
ما حولها من الأشياء .

وكذلك أنفقت هذه الأم ليلتها حائرة ، داهلة مضطربة بين
ما كانت تسمع وما كانت تفكر . ولعلها لم تر شيئاً ولم تسمع شيئاً ،
ولم تفكر إلا في أنها زارت قبر ابنتها حين ارتفع الضحى من الأمس
فراثة . كما ينبغي عندنا أن تكون القبور مهملة في الصحراء . ولم تتعود
أن ترى القبور مهملة ، ومن يدري لعل هذا الطيف الذي رآته لم
يكن خيالاً ، ولعل هذا الصوت الذي سمعته لم يكن صدى ، ولعل
هذه المعاني التي ألقيت في نفسها لم تصدر عن نفسها ، وإنما ألقيت
إليها من عالم آخر ألقاها إليها هذا الصوت الرقيق العذب الذي
كان يأتيها من بعيد ، من بعيد جداً وكان يشبه صوت ابنتها .

الفهرس

صفحة	
٥	الحب الضائع
١١٢	الحب الياثس
١٢١	الحب المكره
١٣٢	بين الحب والإثم
١٤٤	نفس معلقة
١٥٥	ثار بيرينيس
١٦٨	الخيال الطارق
١٧٨	طيف

١٩٩٤ / ٥٤١٤	رقم الإيداع
ISBN 977-02-4578-X	الترقيم الدولي

١ / ٩٤ / ٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

كتب أخرى للمؤلف

مرآة الإسلام

● في المباحث الإسلامية :

● في الأدب والنقد :

فصول في الأدب والنقد

في الأدب الجاهلي

تجديد ذكرى أبي العلاء

حديث الأربعماء (٣ أجزاء)

مع أبي العلاء في سجنه

مع المتنبي

ألوان - جنة الشوك

من حديث الشعر والنثر

من الأدب التمثيلي اليوناني

● في أدب التمثيل :

● في القصة والرواية :

دعاء الكروان

الحب الضائع

صوت باريس

شجرة البؤس

ما وراء النهر

المعذبون في الأرض

● في التراجم والسير :

الوعد الحق - الشيخان

على هامش السيرة (٣ أجزاء)

على وبنوه

عثمان

أديب - قادة الفكر

الأيام (٣ أجزاء)

نظام الاثنينين

● في الاجتماع :

مستقبل الثقافة في مصر

● في التربية :

● في سلسلة اقرأ :

الحب الضائع

أحلام شهر زاد

رحلة الربيع

الوعد الحق

المعذبون في الأرض

صوت أبي العلاء